

ساحر الكتب
بنسيون باولو
22
رواية
أحمد ربيع



بنسيون باولو



الكتاب: بنسيون باولو

المؤلف: أحمد ربيع

تصميم الغلاف: كريم آدم

تدقيق لغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:



20 عمارات منتصر - الهرم - الجيزة

ت: 02 35860372

Noon_publishing@yahoo.com



أحمد ربيع

بنسيون باولو

رواية





إهداء

إلي روح أبي .. ستظل معي دائماً إلي أن نلتقي



لا يوجد في العالم أسمى من دفع الآلام عن إنسانٍ لايستطيع التعبير عن ألمه..!

(يوسف زيدان)

الشمس لا تنام أبدًا، إنها ترحل نحو الجانب الآخر للأرض مستعجلة لتشرق فوق بلاد أقل حزنًا،
خذيني معكِ أيتها الشمس..!

(عتيق رحيمي)



«بما أن حياتنا قصيرة، فإن كل ما يدور فيها، لا يتجاوز في مجرى الزمن قليلًا من اللحظات، كومضة البرق المضيئة الخاطفة.. لهذه الحكاية ثماني ومضات سريعة، لمعت في سمائي..»

(أحمد ربيع)



الومضة الأولى

هلاوس..

إحدى مستشفيات القاهرة الجديدة..

الشتاء الحالي..

شاب في أوائل الثلاثينيات يرتجف على سرير معدني أبيض، له عينان عسليتان لامعتان.. الشعيرات الخفيفة في ذقنه تجمع بين اللونين الأسود والأبيض، كما هو الحال في خصلات شعره الناعم، يعاني من تشنجات حادة ويتعرق جسده بشدة..

حمرة عينيه، جعلت كلًّا منهما تبدو كهوة سحيقة تجري بها أنهارٍ من الدم، تقذف بعضًا من مياهها للخارج عبر قنواتها الدمعية، لتخبر العالم بأن هناك شخصًا آخر يُعذَّب، وأن هناك روحًا أخرى تعاني.. !

كان محاطًا بمجموعة من الممرضات، المتفاوتات في القوام والشكل، فواحدة تبدو رقيقة وحانية كملاك للرحمة، تنزعج وتخاف، حين ترى أحدهم متألمًا وتشفق عليه، وأخرى تبدو كصورة مجسَّدة للعذاب، بملامحها القاسية العابسة، وبقوامها البدين، وكأنها تحاول تدمير الحالة النفسية للمرضى كي يفقدوا أي أمل في الشفاء، أما الثالثة فبدت بأنها لا تهتم،



خاصة أنها تميل دومًا إلى النوم والاسترخاء، في نوبات العمل الليلية، حتى تستريح من متاعبها المنزلية، التي تهد أركان جسدها طوال اليوم ..

حاول الثلاثة السيطرة على المريض، فقبضت إحداهن على يده اليمني، وقبضت الأخرى على يسراه، حتى استطاعت العابسة حقنه بمادة مهدئة تجبر عضلاته على الارتخاء، وأن تدفع الأمواج الهائجة في روحه على السكون، فيغمره الهدوء، ويسقط في هوة أعمق من عينيه وأكثر إظلامًا، يغط بعدها في نومٍ طويلٍ..

تتنهدت الرقيقة تعبيرًا عن الارتياح ، وهي تهمس إلى الكسولة بدون أن تنظر إليها:

- هو إيه اللي زعّله تاني؟!

ترد عليها زميلتها بعبارة غير مفهومة وهي تغلق باب غرفته خلفها، وتتوجهان معًا لغرفة خالية، تكملان فيها ما تبقى من الليل الذي ينقضي في غرس الحقن في جسدٍ هنا أو هناك، أو في التسامر عمّا يدور في نوبات العمل الأخرى، طيلة النهار..!

أخبرت «عفت» الممرضة البدينة، الطبيب النفسي المسئول عن حالته، عما جرى، والذي كان بدوره يطالع ملفه مرة أخرى ..

«حسن محمد الشرقاوي» شاب قاهري، يتيم الأب والأم، يعمل مدرّسًا للتاريخ بإحدى المدارس التجريبية، مصاب بحالة نفسية عجيبة، تتشنج عضلاته خلالها عبر نوبات متكررة غير محددة التوقيت، يصاب بالفزع ويخيَّل إليه أن كلَّ من يحيط به يرغب في قتله أو إيذائه أو التآمر عليه..

كان يعاني من صدمة نفسية عنيفة، أصابته جراء حادث مروّع لطائرة مصرية كانت عائدة من اليونان، أصابها ضرر بالغ غير متوقع في المحركات، مما أدى إلى سقوطها في مياه البحر المتوسط ليلقى كل من فيها نحبه، بما في



ذلك والداه.. مضى على ذلك الحادث المريع ما يقرب من الشهرين، وما زال يعاني من انهيارٍ نفسيٍّ وحزنٍ شديدٍ يستبد بروحه و مشاعره.. !

حاول حينها أقارب الشاب مساعدته، بأن أقنعوه بالامتثال للعلاج في هذه المستشفى الخاصة، التماسًا للشفاء، حتى يتخلص من تلك الأعراض الحادة المزمنة.. لكن زياراتهم له قد قلت بمرور الوقت، كما أن تشابه الأيام كان يصيبه أحيانًا بالملل، أو الضيق، مما دفعه لأن يطلب مغادرة المستشفى أكثر من مرة..

تذكر الطبيب ما كان يقوله له دومًا عن ضرورة الاستمرار في العلاج، وعن طمأنته بأن شفاءه قد بات قريبًا؛ خاصة بعدما تقبَل عقله كل ما جرى ورضي بالأمر الواقع، وتطلع إلى مرحلة جديدة من حياته، كان الشاب يثق فيما يقوله له، ويجد كلامه مقنعًا، لذا فقد نمت بينهما صداقة كان يراها الطبيب حيوية للغاية في رحلته للعلاج..

بالرغم من كل ذلك فقد كان يدرك أن حالته لم تكن تتحسن، وأنه لم يعد يظهر عليه أي تقدم ملموس.. عند هذه النقطة، خلع الطبيب نظارته الطبية، وفرك عينيه المرهقتين بيديه بعد أن حكَّ شاربه الأسود بطرف إصبعه وأغلق الملف المليء بالتقارير الطبية من جديد..

***

كانت الأمطار تنهمر في كل مكان كعادتها في تلك الفترة من العام، وتعزف أصوات الرياح مقطوعتها الصاخبة لتشق سكون الشوارع الخالية، وسط انعكاسات ضوئية ملونة على تجمعات المياه اللامعة بأنوار أعمدة الإنارة حينًا، أو بضوء القمر عند اكتماله.. ما أطول الليالي الشتوية، وما أشجن الشوارع الوحيدة الباردة التي تُذكِّرنا بشوارع ذكرياتنا العتيقة..

الشتاء يجبر الجميع على الاختباء داخل منازلهم المضيئة من الداخل،



حتى إن رواد تلك المستشفى الخاصة قد صمَّ آذانهم صوت الصيحات الرعدية المتتالية لتزداد حالة الانكماش العام..

اسمي «حسن»، أتأمل الشارع الهادئ الممتد بالخارج، من خلف زجاج غرفتي بالمستشفى، بلا مشاعر أو أفكار، وبنظرات خاوية.. تتلاحق أنفاسي، وتتسارع نبضات قلبي، حين تنتابني بعض الكوابيس المتكررة، والتي يقلل تشابهها من تأثيرها المعتاد.. !

أشعة الشمس تلامس يداي فتجعلها مضيئة، الأشعة دافئة وكاشفة للغبار الهائم في الهواء غير المرئي من حولي.. هكذا هي أحزاننا، تهيم فينا ولا تُرى..!

يومًا ما.. ستشرق شمسٌ تهتم لأمري.. وسأصير شفافًا ومرئيًّا..!

أنا هنا منذ شهرين، بسبب تلك النوبات المرضية التي تنتابني كل فترة والتي تجعل سلوكي عنيفًا خارجًا عن السيطرة، أنا وحيد؛ توفت أسرتي في حادثٍ غريبٍ، ومنذ ذلك الحين وأنا هنا للعلاج، تحت وطأة تلك التشنجات والرعشات العصبية المصاحبة للنوبة..

ما جرى لأبي وأمي، يمزق روحي كخنجر حاد؛ فقد كانا كل ما أملك في هذه الحياة، كانا أسرتي وسبب وجودي ورفيقيّ اللذين شاركانني كل ذكريات العمر ، بحلاوته وأوجاعه..

هما سكندريان وكذلك أنا، فقد عشت طفولتي في أحضان البحر، لكن أمي كانت من أصلٍ يوناني، عاش أبواها زمنًا في الإسكندرية، وهاجرا مجددًا إلى أثينا منذ سنوات طوال..

كان دومًا ما يحكي لي أبي عن قصة الحب التي جمعته بأمي، وكيف أسَرَته بعينيها العسليتين، وبضحكتها المبهجة، كان يرسل لها الخطابات الغرامية، المُحلاة بكلمات الغرام والغزل، تذكرت أن أحدهم ضمنَ متعلقاتي، فأحضرته وقرأت ما فيه مجددًا:



أحببتها لأن بحور عيينها يونانية..
وأنا سكندريّ الهوى..
أحببتها والحب غالب..
والقدر غالب..
و ارتباطنا الخالد القديم..
يا حبيبتي..
غالب..
و لأن أمواجنا تتلاقى في منتصف البحر ..
و منتصف العمر..
وعلى قارب الحياة..

كيف يا حبيبتي لا أهيم بفتاة يونانية..
و من بني الإسكندرية ..
ملك يوناني..
واسم مقهاي المفضل على الشاطئ..
يوناني..
وصديقي العجوز يانّي..
كان سكندريًّا يونانيًّا..!

تذكرت أيضًا هذه الكلمات الرقيقة:
هل تعلمين يا حبيبتي..
أني زرعت لكِ زهورًا بين البنايات ..
و في طولها..
لكي تريها من بعيد..
وتعرفي أني مشتاق..!



كم كانت كلماتك صادقة يا أبي، وكم كان كل شيء جميلًا.. كانت مشاعرنا حقيقية، وكانت نظراتنا فياضة بالحنان.. وكم كانت رائحة البحر تُشعرنا بروعة الحياة..!

استمر الحديث الدائر بيني وبين نفسي طويلًا.. فتلك القماشة التي يظهر عليها اسمي، وأضعها فوق جيبي الأيمن، كتبي وأشيائي التي أدوّن عليها ذات الاسم، كي أقول للعالم أن هذه الأشياء ملكي أنا!.. اسمي هو ما يميزني، ما يمثلني، أحب نفسي، أحبك يا أنا وأحكي لكِ عن كل شيء، أعيش معكِ كل لحظات اليأس والحزن وكل أوقات السعادة والأمل، أخاف عليكِ جدًّا و تخافين على نتشارك سويًّا في الأفكار والأحلام والآلام، أما آن يا أنا أن نرتاح..!

في صباح أحد الأيام، وبعدما مرت ساعات الليل طوال كالدهر، كالمعتاد، شعرت بصداع يمزق رأسي، وبطنين في أذني لا ينقطع، إظلام تام، ومضات سريعة وقديمة تتعاقب على مخيلتي، ليتني أظل هكذا في بحور اللاوعي السحيقة، إلى أن أستريح من هذا العالم..!

جاء الطبيب المسئول عن حالتي، مرتديًا منظارًا طبيًا يبعث على الوقار، ليرمقني بنظرات فاحصة، ويراجع آخر تقاريري بتركيز ثم يبتسم لي ابتسامة هادئة ويغادر المكان، ليعطوني بعد يومين الإذن بالخروج.. !

استبدلت ملابسي في هدوء وأتاني بعض الرفاق لتوديعي، شعرت بتلك الرعشات تجتاح ذراعي الأيسر فأخفيت الأمر بصعوبة واتجهت لمغادرة المكان، هطلت الأمطار ودوى الرعد مع ومضات متقطعة للبرق فشعرت بالاضطراب وهم يلوحون لي جميعًا ومن خلفهم الطبيب بنفس ابتسامته الهادئة.. انطلقت إلى الخارج بينما كانت الأمطار تهطل في كل مكان بلا توقف..

***



ما إن رأيت الشارع الممتد حتى احتضنتنى نسمات باردة لطيفة أراحت روحي قليلًا وطمأنتها وهدت عقلي لأن أتوجه إلى الإسكندرية في أول قطار يقلع من محطة رمسيس، حيث الحنين إلى بداياتي الأولى؛ فهناك وبالقرب من البحر، كانت نشأتي وطفولتي وأول شعاع مضيء ينساب إلى عيني، كانت أمي شابة وجميلة وكان أبي حنونًا، لماذا لا أعود إلى الماضي فحسب..؟!

أوقفت أحد التاكسيات البيضاء والذي أوصلني إلى محطة القطار في ساعة الغروب، قلت محدثًا نفسي لا توجد شمس أصلًا لكي يكون هناك غروب.. !

على الصوت الرتيب لاحتكاك عجلات القطار بالقضبان الحديدية، أخذتني غفوة لا فرار منها، في الوقت الذي بدأت فيه السماء في الإظلام . رأيتني كطيف يهيم في صحراء واسعة وحيدًا يتحرك باتجاه واحة سحرية تظهر في الأفق، شعرت بالعطش وبطعم ملحيّ في لساني حتى هبط الليل فجأة وتلألأت النجوم ولفتني الرياح من كل جانب.. وقعت عيناي على بئر بها ماء بارد فشربت منه بكفي الصغير مرات متتاليات حتى ارتويت ..

حول نار مشتعلة عند شجرة منعزلة جلست فتاة لم أتبين ملامحها، تنظر إلى بهدوء وتبتسم..

ظلال ألسنة النيران تتراقص على وجهها، ومن خلفها بدت مسلة فرعونية شاهقة الارتفاع، مليئة بنقوشٍ قديمة غير مفهومة المضمون..

أفقت فجأة من غفوتي إثر توقف القطار في إحدى المحطات وبائع مجلات يطوف العربات ينادي بأسماء الكتب والجرائد التي يحتضنها أغلب الوقت، طلبت منه إحدى الجرائد بخمول وطالعت صفحته الأولى متعجبًا.. أهذه الطبعة حديثة حقًا أم انهم أخطاوا النشر فأصدروا عناوين مشابهة لما كنت أقرؤه منذ شهرين.. !



وضعت الجريدة إلى جانبي وأنا أتأمل تلك الحقول الخضراء المتعاقبة عبر مساحات واسعة وقد تنوعت بها المزروعات، وكذلك أشكال البيوت المتناثرة في أطرافها..

بعد توقفات قليلة، استقر القطار حين وصلنا إلى محطة سيدي جابر السكندرية، شعرت بالعطش، فشربت نصف زجاجة المياة الصغيرة التي كنت قد وضعتها بجانبي.. يبدو أن عقلي قد أدرك سريعًا أن ارتوائي كان خياليًا، في عالم الأحلام.. !

أمسكت بيد حقيبتي الكبيرة ذات العجلات وجررتها على الرصيف المبلل، مادامت قد أمطرت في القاهرة فلابد أن الأعاصير قد عصفت هنا بالمكان، فشتاء الإسكندرية أكثر قسوة وأطول ..

❊❊❊

توجهت إلى بنسيون «paolo» القريب من منطقة محطة الرمل والمشبع بروح إيطالية فريدة؛ فلا يفصله عن بلاده سوى البحر.. علمان إيطاليان يرفرفان فوق لافتته العتيقة، بابه الزجاجي له إطار خشبي مطلي باللون الأبيض، دفعت مقبضه الذهبي للداخل ..

اجتزت البهو المحدود المتناثر فيه عدة أشخاص هنا وهناك، طلب منّي موظف الاستقبال بعض البيانات الشخصية قبل أن يعطيني مفتاح الغرفة رقم (٢٢) بالدور الثاني، وهي غرفة (فاتحة بحري) كما قال لي..

صعدت درجات السلم الرخامية، يحمل عنّي أحد العاملين حقيبتي السوداء، مشينا بضع خطوات في ممر غير واسع، إلى أن وصلنا للغرفة، أعطيته بقشيشًا فإبتسم قائلًا:

- نورت يا بيه..

وضعت الحقيبة بجانب دولاب الملابس واستكشفت البلكونة المطلة



على الخارج، كان لون البحر قاتمًا بفعل الظلام والأمواج العالية تضرب الصخور بكل قوة فيتطاير الرذاذ على أرضية الرصيف. أغلقت الباب الزجاجي هربًا من تيار الثلج المنساب إلى الداخل، كان ضوء الغرفة برتقاليًا خافتًا.. ارتميت على الفراش الوثير الذي كان طريًّا وباردًا، تأملت إحدى اللوحات التي كانت معلقة على الحائط.. كانت لوحة لفتى صغير يرتدي ملابس بيضاء مخططة بلون أحمر باهت، يمسك في يديه بخيط رفيع ينتهي بطائرة ورقية ترفرف في أعالي عالم أزرق، تلمع في سمائه نجمة وحيدة عملاقة.. لا بد من أنه كان يركض في اتجاه الأفق ظنًا منه أن قوس قزح هو قطعة من الحلوى الملونة.. !

وجدت صدفة بحر بجواري؛ فقربتها من أذني، لينساب إلى سمعي صوت أمواج البحر، سألت نفسي: تُرى.. في أي موطن كانت تسكن هذه الصدَفَة؟!، ليتني مثلها، أعيش مستكينًا في مملكة مائية زرقاء، أفترش فيها شعاب المرجان، عديدة الألوان، وأنعزل فيها عن كل شيء يؤرّقني.. في أعماق بحرٍ بعيدٍ..!

شرد ذهني حين وصلت إلى تلك النقطة، وجاهدت لكي أنهض حتى أقوم بتغيير ملابسي، إلا أنني لم أستطع.. أغلقت مفتاح الأباجورة بجواري وأرخيت جفنيّ في استسلام لذيذ فاحتشدت بداخلي الرؤى وتداخلت حتى بدوت وكأنني رجل يعيش في مائة عالم في وقت واحد، مائة عالم.. مشوش ومبهم وحزين ..

رأيت بعدها طيورًا تغتسل أمامي في بحيرة زرقاء، بينما أسبح أنا في زكريات وأشجان، كان هناك أيضًا رجل يشبهني، يبحث بكل عزم عن أحلامه المزدحمة في البراح ويفتش عن قطع السُّكر في بلاد الملح، ترافقه في رحلاته نسوة تغطي شعورهن الحمراء الطويلة نصف وجوههن ويعزفن



على آلات موسيقية بتناغم وانسجام، حقًا إن كل ما يدور لا نهائي، حتى الأحلام؛ لأنها تدور في فلك أرواحنا بلا توقف..

***

الصباح التالي كان مشمسًا، نشرَتْ فيه الشمس أشعتها على الوجود كطائر أسطوري متعدد الأجنحة، فتحت عينيّ، وترددت بين أن أستكمل نومي، أو أن أستيقظ، كم هو ممتع أن يكون قرار استمرارك في النوم ملك يدك.. قررت النهوض وشعرت أني أكثر نشاطًا عن يوم أمس المرهق؛ فتركت المياة تنساب على جسدي وثناياه في الحمَّام الداخلي للغرفة حتى انتعشت، توالت على عقلي الأفكار، يا للعجب إنني أفكر بطريقة أفضل أثناء الاستحمام، هل يرجع ذلك إلى أنني

أكون معزولًا عن بقية الناس؟ !، أم أن إنعاش الجسد، تصاحبه انتعاشة العقل، قد يكون، فهما متلازمان..!

طلبت فنجانًا من القهوة حتى أستطيع أن أبدأ هذا اليوم الجديد، ولكي تستطع كل خلية من خلايا عقلي لأن تصل إلى تلك الحالة من الاستفاقة و»الصحصحة»، صدق الشاعر حين قال: «القهوة هي مفتاح النهار..!»

أمسكت بالفنجان ذي النقوش البديعة وارتشفت منه ببطء وأنا أتابع حركة السيارات أمامي على الكورنيش، المصحوبة بأصوات متداخلة مع أولئك المارة على الرصيف المقابل والذين ازداد عددهم بمضي الوقت..

وصلت وجبة الإفطار، وكنت أشعر بالجوع، كانت عبارة عن أطباق من الزيتون الأسود والجبنة المقرمشة وفول الزيت الحار، مع



طبقٍ من العسل الأبيض وبعضٍ من الخبز الساخن وكوبٍ باردٍ من العصير ..

كان للبحر زرقة خلابة، تُريح النظر، وكانت السماء صافية، بعدما كانت بالأمس، ملبدة بالغيوم، تمنيت لو أنني كالطيور، أختار موطني كل حين، فأرفرف بين البحر والسماء، وأرقص في الهواء.. حُرًا.. !

بينما كنت أجوب بنظري بين المارة على الطريق وبين لطمات الأمواج المتتابعة على الصخور، إذ وقعت عيناي على إحدى الفتيات، ترتدي ملابس ذات لون أحمر لافت، تقف وحيدة وكأنها تنتظر أحدًا..

كانت متوسطة الطول، لم أتبين ملامحها لبُعد المسافة، ولكنني شعرت بانجذاب غريب نحوها وكأني أعرفها، بدا شعوري عارضًا وغير منطقيّ، مما جعلني أهبّ واقفًا وأركز نظري عليها محاولًا التركيز على ملامحها ..

لمع في ذهني حينها مشهد كان قد جاءني في منامي كومضة برق خاطفة، كان المشهد هو جزء مما رأيته عندما غلبني النوم في القطار؛ ابتسامة غامضة لفتاة ترتدي فستانًا أحمر وتجلس حول شعلة نار متقدة في مكان منعزل..

ما هذه الأفكار الجنونية والتخيلات..!

هل مازلت أعاني من الهلاوس النفسية؟!، أم أن عقلي قد أصبح مشوشًا ومضطربًا بعد كل ما عاناه..!

تصارعت بداخلي التفاسير والأفكار وزادت شكوكي في وقوعي تحت تأثير الهلاوس كنتيجة للعقاقير الغريبة التي كانت تخترق جلدي في الشهور القليلة الماضية..!



قررت النزول والاقتراب منها فقطعت الممر والسلالم سريعًا، خرجت من باب الفندق واجتزت الطريق سريعًا حتى وصلت إلى الجهة المقابلة في لحظات، وكأنني انتقلت إليها عبر آلة زمن..

لم تشعر بمراقبتى لها وأنا أتفحصها بحذر، فتاة مميزة الملامح، بروحها شيء ساحر جذاب لا أستطيع أن أحدده، ملونة العين، كحيلتها، تحمل على ذراعها حقيبة جلدية، لا يبدو عليها الثراء ولا الفقر، وإنما كأغلب الناس في بلادنا، في منتصف كل شيء..!

تلاقت أعيننا مرتين.. لم تدرك ما يجول في نفسي، ولم ترَ ما يدور في ذهني وهو يعيد لي مشهد تلك الفتاة الصحراوية مرة أخرى بكل هدوئها وغموضها، فتتضح ملامحها التي كانت مشوشة وأتقين من أنها هي ..

عصفت بعقلي الظنون والخيالات أكثر، كيف أحلم بفتاة لا أعرفها ولم أرها من قبل، وكيف أقابلها في العالم الواقعي بعد ذلك، كان الأمر محيرًا ومدهشًا إلى أقصى الحدود ..

كانت حيرتي تفوق حيرة عالم كبير يقف عاجزًا أمام معادلة رياضية، لا يتوقع أن يجد لها حلًا من فرط صعوبتها، أو لعلها كحيرتي في فهم الحياة، تأخذ منا أحبابًا وتهبنا آخرين، فلا أحبتنا القدامى يعودون ولا من معنا يبقون.. !

مرت برهة من الوقت والسكون حتى لمحتها تعبر الطريق في اتجاه الرصيف المقابل، مشيت خلفها مأسورًا وكأنني أحد السائرين نيامًا حتى وصلت الفتاة إلى (سنترال محطة الرمل) ودلفت إليه؛ لابد من أنها تجري مكالمة ما.. خرجت بعد برهة، ثم استقلت (الترام) في اتجاه العودة، كنت خلفها بخطوات قليلة، لم أرَ مقاعد



خالية، فارتكنت على أحد الأعمدة الحديدية الرفيعة داخل عربة الترام.. هكذا أستطيع مراقبتها بشكل أفضل وهكذا أبقي نظراتي ثابتة عليها..

أخرجت علبة سجائري وأشعلت سيجارة تصاعد دخانها في الهواء بينما كانت ضوضاء الزحام تعلو فوق كل شيء.. لم تلتفت باتجاهي؛ فتأكدت من أنها لم تلاحظ مراقبتي لها، كانت جالسة ومستكينة وكانت تنظر من خلال الشباك المجاور لها إلى الخارج..

في إحدى المحطات ازداد الزحام وأعاق رؤيتي للفتاة التي بدا لي لوهلة أنها اختفت فجأةأو تبخرت في الهواء.. تلفّت حولي في كل النواحي ونزلت إلى الرصيف، لتتشابة في عيني كل الوجوه وتصير نسخة واحدة، وكأنني قد انتقلت إلى أحد شوارع الصين..

***



الومضة الثانية

ظلال..

كان ذلك الطبيب الكبير يقلّب صفحات أحد الملفات باهتمام، ويركز على ما ورد فيه بعمق، قبل أن يغلقه بهدوء، ومن ثم يضعه في مكانه على أحد الرفوف . طرق أحدهم الباب فأذن له بالدخول:

- صباح الخير يا دكتور أشرف..

- صباح النور يا دكتور هشام، اتفضل..

- حضرتك شكلك مجهد جدًّا النهارده..

- الملف اللي أنا شغال عليه متعب جدًّا، إوعى تكون اتكلمت مع حد عنه..

- لأ طبعًا يا دكتور ما أقدرش أتكلم في أسرار الشغل مع أي مخلوق..

- أنا وصلت لمعلومات مهمة وشغال عليها، الموضوع أكبر مما كنت متخيل وفيه لعب كتير ، الناس ضمايرها ماتت يا هشام وبقى كل همها الفلوس، تسرق عشان الفلوس تجرح غيرها عشان الفلوس، ومفيش مشكلة إنها تقتل.. عشان يبقى معاها شوية فلوس..

- عندك حق يا دكتور ضماير الناس لو ماتت، كل حاجة حلوة فيهم بتموت، مش بيبقوا بشر أصلًا، بيتحولوا لحيوانات كل همها إنها تلبي رغباتها واحتياجاتها المريضة..



صمت هشام الدكتور الشاب ثلاثينى العمر بمنظارة الطبي وبخصلات شعره الطويلة الناعمة، حينما هيمن شبح الحزن على عينا أستاذه الدكتور «أشرف مجدي»، لم يرَه بهذه الحالة طيلة الخمس سنوات التي عملا فيها سويًّا، فقد كان أشرف مرحًا واجتماعيًّا ومستمعًا جيدًا، يحكي له الجميع ما يمر بهم من مشكلات، استأذن للانصرف لمقابلة طابور المرضى الذي ينتظره وهو يشعر تجاهه بالقلق والشفقة، لم يكن يعلم أنه كان يحمل على عاتقه ملفًا سريًّا و خطيرًا..

أخطر مما كان هو نفسه يتصور..

***

«نحن نري بقلوبنا..

لا بأعيننا..!»

عدت إلى البنسيون، وجلست قليلًا في البهو الواسع، هاربًا من وحدتي وأفكاري، تابعت التلفاز والذي كان يبث مباراة في كرة القدم كانت الأجواء الحماسية تهز الإستاد الواسع لذلك النادي الكروي الشهير إستعدادًا لمباراته الهامة والختامية في تلك البطولة، رغم برودة الأجواء وانتشار بخار الماء المتصاعد بكثافة نتيجة لهتافات الجماهير الغفيرة..

بدأت أحداث المباراة سريعًا وظهر على اللاعبين التركيز والتحفظ ومحاولة إمتلاك الكرة أطول فترة ممكنة، أما المدربان فقد بدا على أحدهما العصبية الشديدة والإعتراض المتواصل، على قرارات حكم المباراة، بينما كان المدرب الآخر هادئًا في أغلب الأوقات..

أما ذلك اللاعب المصري الشاب فقد كان يتابع اللقاء من دكة اللاعبين الإحتياطيين، نظرًا لمشاركاته القليلة حتى إن الجمهور بات لا يعرف عنه إلا القليل، تسارعت وتيرة المباراة أكثر مع إحراز الفريق الخصم هدفًا مفاجئًا،



من هجمة سريعة ليرد عليه الفريق المضيف بهدف التعادل بعدها بمدة قصيرة، ليستمر اللعب بعدها على نفس المنوال مع توتر واضح على وجوه المشجعين في المدرجات بعد أن تبقت دقائق قليلة على نهاية الوقت الأصلي..

كان على المدرب الهادئ أن يفعل شيئًا ما بدلًا من أن يقف عاجزًا ومكتوف الأيدي عن تغيير النتيجة الحالية المتعادلة.. تلفت حوله قبل أن يتأمل في وجه ذلك اللاعب المصري الذي لم يصدق نفسه والمدرب يطلب منه أن يقوم بعمليات الإحماء استعدادًا للمشاركة في اللقاء..

زاد القرار من غضب الجمهور، الذي لم يكن يرضيه في مثل هذا الموقف الحساس؛ أن يتم الدفع بلاعب مغمور، مع تجاهل المدرب لتلك الهتافات الصاخبة ولاعبه يدخل إلى أرضية الملعب قبل خمس دقائق من النهاية..

توالى تبادل الكرة بين اللاعبين، إلى أن وصلت الكرة للاعب المصري الذي لم يحسن التصرف فيها لتزيد صافرات الاستهجان وليسري التوتر في أعماقه أكثر ..

تتالت الفرص، إلى أن وصلت الكرة لأقدام أحد اللاعبين في وضع سمح له بالإنفراد بحارس المرمى ليركلها بسرعة قبل أن تصطدم في القائم ويصاب الجميع باليأس والإحباط حتى برز ذلك اللاعب المصري بغتة أمام الكرة المرتدة من القائم وكأنه شبح قرر الظهور في عالمنا لأول مرة ليركلها بكل قوة وسط ترقب الجميع الذين احتبست أنفاسهم للحظات وذلك اللاعب يراقب الكرة وهي تتجة إلى المرمى وتتجة معها أحلامه وطموحاته..

كان تتجسد أمامه حينها كل التحديات التي واجهته وكل التشكيكات التي حاولت إيقافه وكل أوجاع الغربة وآلامها حتى رآها تتبدد أمامه والكرة تتجاوز خط المرمى بنجاح..

أخرجت هاتفي و أخذت أقلب في لائحة الأسماء باحثًا عن أرقام



هواتـف أصدقائـي السـكندريين حتـى توقفـت أمـام رقـم «كـمال» صديقـي القديـم، هـو الآن يعمـل مهندسًـا في إحـدى الـشركات..

الصداقـة مـن أهـم قيـم العـالم وأنقاهـا؛ فنحـن البـشر جئنـا إلى هـذه الحيـاة الموحشـة خائفـين، نتلفـت في كل اتجـاه باحثـين عـما يؤنسـنا؛ لذلـك خلـق لنـا الإلـه الصداقـة والتشـارك والتعـارف حتـى يسـاعد النـاس بعضهـم البعـض في تخطـي محـن الحيـاة ونوائبهـا..

كان صوتـه ودودًا ونحـن نتفـق عـلى التلاقـي في كازينـو الشـاطبي المحـاط بميـاه البحـر مـن كل اتجـاه وكأنـه جزيـرة للمحبـين. حينـما اسـتقرت جلسـتنا هنـاك حكيـت لـه عـن تاريـخ الكازينـو، وكيـف أن العندليـب عبـد الحليـم حافـظ غنـى هنـا «صافينـي مـرة وجافينـي مـرة وماتنسـنيش كـدة بالمـرة» في بداياتـه، أخبرتـه أنـه قـد تـم إنشـاؤه في عـام «١٩٠٧» وكان خشـبي البنـاء فتـم هدمـه بأمـر مـن البلديـة وتـم بنـاؤه مجـددًا عـام « ١٩٥٢ » وقـدَّم فيـه العديـد مـن الفنانـين حفلاتهـم؛ كثلاثـي أضـواء المسـرح وإسـماعيل يـس ومحمـد قنديـل ومحمـود شـكوكو، كـما كتـب فيـه أبـو السـعود الإبيـاري الكثـير مـن روائـع أفلامـه الكوميديـة الخالـدة..

- بحر إسكندرية كان واحشني..

- وأنت كمان كنت واحشنا يا حسن، ينفع كده يا راجل الغيبة دي..

(ابتسم ثم تابع):

- دا إحنا يا ابني فكرناك هاجرت..

- مانـا قلتلـك الظـروف اللي مريـت بيهـا في التليفـون، وبعديـن أنـت عـارف أدّ إيـه أنـا بحـب إسـكندرية وأدّ إيـه مابحبش أبعـد عنهـا فـترات طويلـة..

- إحنـا كلنـا جنبـك ومعـاك، وبعديـن مـا إحنـا يامـا شـفنا ولسـه هنشـوف.. هـو فيـه حـد مرتـاح أصـلًا..



اعتدلت في جسلتي ونظرت إلى عينيه بتركيز :

- كنت عايز أحكيلك على حاجة غريبة أوي حصلت معايا النهارده..

بدا على «كمال» الاهتمام والتركيز، وتساءل:

- حاجة إيه..؟!

- أنا بقالي فترة أحلامي بتتكرر كل يوم.. هو بالظبط حلم واحد عمال بيتعاد، فيه بنت ما اعرفهاش ولا عمرى شُفتها قبل كده..

- موضوع تكرار الأحلام ده ممكن يحصل عادي جدًا، هتلاقي بس عقلك الباطن بيلاعبك شوية ..

صمتّ قليلًا وأنا أتطلع إلى عينيه مباشرة وأطلقت عبارتي كالسهم:

- البنت دي أنا شُفتها على الحقيقة النهارده..

❊❊❊



في وقت قريب مضي..

مدينة القاهرة..

كانت ملامح الجدية ترتسم على وجه الدكتور «عدنان علي» رئيس الإدارة المركزية للمؤسسات العلاجية غير الحكومية «العلاج الحر» ببدلته الأنيقة ومنظاره الطبي الذي أخفضه قليلًا لتظهر عيناه الملونتان وهو يستقبل الدكتور «أشرف» مدير مستشفي «Alex Clinic» قائلًا:

- عامل إيه يا أشرف وإسكندرية عاملة إيه..

ابتسم أشرف وهو يرد:

- بخير يا دكتور وإسكندرية بخير..

- فاكر سهراتنا زمان قُدام البحر ؟

- طبعًا يا دكتور، ولسه لحد دلوقتي الناس بتسهر على الكورنيش لحد الصبح..

ابتسم «عدنان» قائلًا:

- فكرتني برواية لإبراهيم عبد المجيد اسمها «لا أحد ينام في الإسكندرية».. المهم سيبك دلوقتي من الذكريات، وخلينا في الموضوع اللي أنا جايبك عشانه النهارده..

ارتسمت على ملامحه الجدية وهو يسترسل مكملًا :

- طبعًا كان فيه ناس كتير غيرك كان ممكن أكلفهم بالملف ده من اللي شغالين معايا في الإدارة هنا، بس الموضوع ده بالذات حبيت أشتغل فيه بطريقة مختلفة، وما أتقيدش بأساليب الشغل المعتادة، نظرًا للأهمية بتاعته ولأن ثقتنا فيك وفي ذكائك مالهاش حدود..



- وأنا يا يافندم مقدر الثقة دي جدًّا، وإن شاء الله أكون أدّها..

- مافيا الإتجار في الأعضاء البشرية نشطت في الفترة الأخيرة، ودا بيرجع بالتحديد لمشاكل الفقر والجهل وغياب الوعي، غير إن فية دكاترة ماعندهمش ضمير لقوها فرصة عشان يحققوا مكاسب سهلة، تعرف إن ٧٨٪ من المانحين بيعانوا من تدهور في حالتهم الصحية بعد العملية الجراحية، وحوالي ٧٣ ٪ منهم بيعانوا من ضعف قدراتهم على أداء الوظائف والمهام الصعبة اللي بتحتاج جهد شاق، التجارة دي بقى ليها أكتر من مركز رئيسي على مستوى العالم، لدرجة إنها بقت بتكسب أكتر من تجارة المخدرات..

- الناس دي عار على المهنة، ولو كان عندهم ذرة إيمان واحدة إن ربنا مابيسبش حق حد، وإن الحاجات دي ممكن تترد في ولادهم، كانوا هيفكروا ألف مرة قبل ما يعملوا جرايم بالبشاعة دي ..

- خلّي بالك إحنا متابعين الموضوع دا كويس جدًّا.. عشان كده المعلومات اللي هتوصلها لازم تكون دقيقة وتكون عليها أدلة ماتقبلش التأويل..

- عندك حق يا دكتور.. أنا متحمس لكل الكلام اللي حضرتك قلته، وهبدأ شغل في الملف ده من بكرة ..

أومأ الدكتور عدنان مبتسمًا والدكتور «أشرف» يصافحه مستئذنًا بالانصراف، ليعود بعدها إلى الإسكندرية وهو يفكر في كل شيء بلا هوادة..

***



عدت إلى البنسيون بعد توديع كمال والذي ظهر عليه التعجب والحيرة مما رويته له:

- إزاي يعني شُفتها في الحلم قبل ما تقابلها على الحقيقة، دا مش كلام ناس عاقلين ياعم حسن..!

- عايز تقول إني اتجننت صح.. قولها، مش هزعل.. أنا نفسي بقيت بشك في نفسي ..

- يا حسن أنا مش قصدي كده، بس أنت كلامك غريب شوية، طيب ما ممكن تكون شُفتها زمان قبل كده واتخزنت صورتها في عقلك الباطن فأنت اتخيلت إنك أول مرة تشوفها..

- يا سلام على التفسيرات العبقرية، طب وأنت شايف يعني إنها حاجة طبيعية إني أقابلها بعد ما تجيلي في الحلم بيوم..!

- بقولك إيه يا أبو علي، أنت خليت دماغي بقت مش فيَّ، أنا هبتدي أخاف منك يا عم، شكلك كده بقيت من أولياء الله الصالحين وبقى ليك كرامات..

- كرامات إيه بس، طب إيه المسلة الفرعونية اللي كانت في الحلم دي وإية علاقتها بالبنت اللي أنا شُفتها، حاجات غريبة أوي وملهاش علاقة ببعض..!

- حاجات غريبة فعلًا.. زي ما يكون طلاسم .. بس أرجع وأقولك إن دا في الأول وفي الآخر حلم.. أنت بس اللي مكبر الموضوع شوية..

ابتسمت له وأنا أعذر حيرته، كيف للإنسان أن يفك رموز هذا الكون المترامي الأطراف و هو لم يستطع سبر أغوار نفسه البشرية بعد..

مر يومان وأنا أراقب فيهما الرصيف المقابل عسى أن تظهر فتاتي مجددًا،



ولكن شيئًا لم يحدث و كأننى أنتظر وهمًا كبيرًا كالسراب، انقشع بلا رجعة..

للانتظار نار حارقة ولوعة مضنية وترقُّب حاد، ففيه تتركز عقولنا على أفكار واحدة، تحتل أرواحنا وتتلبسها وتصبح ممسوسة بها، فيثير جنونها تباطؤ الوقت المستفز ويقتلها الملل اللامبالي بشوقها للنوال؛ فهي سجينة ما تنتظر، حبيسة ما تتطلع إليه.. لا تستطيع التنغماس في ما سواه.. !

حينما حل اليوم الثالث كان كل شئ مختلفًا ومباغتًا؛ فبينما كنت أتناول طعام الإفطار في مطعم البنسيون، إذ لمحت تلك الفتاة على نحوٍ مفاجئ، تقف أمام موظف الاستقبال وتتجاذب معه أطراف الحديث وكأنها ظهرت بغتة من العدم.. ابتسمت ثم أخرجت شيئًا من شنطتها الجلدية السوداء وأعطته له..

أصابتني المفاجأة بالجمود وأنا أتأمل قوامها الممشوق وشعرها الأسود المنساب على كتفيها كالشلال وذلك العامل يحمل عنها أغراضها وهى ترتقي درجات السلم بكل هدوء ..

انتظرت قليلًا ثم توجهت إلى الموظف كالمسحور وأنا أحك ذقني بإصبعي بقليل من التوتر :

- صباح الخير..

- صباح النور يافندم..

لمحت اسمه المدوَّن على ذلك البادج الصغير فتابعت:

- بقولك إيه يا عمور، هي مين الآنسة اللى كانت واقفة هنا دلوقتي؟

- «سها». الآنسة اللي حضرتك بتسأل عنها اسمها «سها» وهي حجزت هنا معانا وهتكون موجودة في البنسيون الفترة الجاية..



- طب ممكن أعرف عنوانها أو أي حاجة عنها؟

- ماينفعش والله أطلّع بيانات النزلاء اللي عندنا ..

عقدت حاجبي وأنا أردف بامتعاض:

- ألف شكر يا عمرو، كمل شغلك أنت..

صببت كامل غضبي على قواعد العمل الروتينية، من خلال لعناتي السرية عليها، عسى أن تصادف واحدة من تلك اللعنات تعويذة سحرية سوداء، ينهار على إثرها كل ما هو جامد وثابت و رتيب، وينخسف إلى ما دون الأرض السابعة..!

***

عاد الدكتور أشرف إلى منزله، والحنين لطفلتيه الجميلتين قد فاق الاحتمال، فتحت له إبنته الصغرى «مي» بشعرها الكستنائي، وبذلك النمش المتناثر على خديها، وهي تتقافز من السعادة لتتعلق في رقبته بيديها الناعمتين وتقبله، أما زوجته «سميرة» أستاذة الجامعة، فقد قامت باحتوائه داخل أحضانها الدافئة، كطفل يعود إلى أمه بعد أيام طويلة من الغياب..

كانت قد أعدت له طعامًا ساخنًا مما لذ وطاب، خاصة الملوكية التي يحب أن يتناولها من صنع يديها، بعد تناول الغداء، جلست الأسرة تشاهد برنامجًا ترفيهيًا على الشاشة الكبيرة، ممسكين بأكواب لذيذة من عصير الموز الممزوج باللبن، تمنى من قلبه، حين رأى كل تلك السعادة، ألا تفرقهم الأيام قط، وألا يصب عليهم الزمان بعضًا من شرابه المر.. العائلة هي القوة ولا شيء يعلو فوق رابطة الدم؛ فالوحدة ثعلب شرس يفتك بالفرادي، ويخشى من الجماعات.. !

كان خمسيني العمر، ممتلئ الجسم، في وجهه حُمرة، خفيف الشعر من كثرة الأيام ومن ديمومة التفكير على عكس ما كان في صباه من خصلات



كثيفة وناعمة، كان ترتيبه متقدمًا على بقية دفعته عند التخرج، وكان ضمن الاتحاد الطلابي في الجامعة، كان من أولئك الأشخاص الذين لا يعرفون الفشل، ولا يرضون بالإخفاق، على أرض السباق هناك نوعان، نوع يحارب حتى آخر رمق، ويصل في وقته المحدد، ونوع آخر متواكل يصل دائمًا بعد فوات الأوان واهمًا نفسه أنه مغلوب على أمره، فلا هو يغلب، ولا أمره يستقيم..!

عند منتصف الليل، أطفأ أنوار غرفة النوم، وغطى رأسه بلحاف أبيض بارد، لم يدفئه وجوده بعد، كان كل شيء حوله مظلمًا ومغطى بالسكون، إلا تلك الأشباح السوداء الرفيعة التي اقتحمت عليه غرفته فجأة وهي تصرخ بصوم مكتوم، أصابه بالفزع وهب جالسًا على السرير، حين رأى عشرات منهم يحيطون به من كل اتجاه، تقدم أحدهم نحوه ببطء وأشار إلى جزء ينفصل عن جسده مخلفًا في موضع الانفصال شلالًا دمويًا أحمر اللون، لتكرر بقية الظلال نفس المشهد الرهيب ويزداد منسوب الدماء في الغرفة التي تحولت كبحيرة قاتمة ملعونة، يتزايد بعدها الأنين بشكل أعمق مسببًا ارتجاجًا أطاح بكل شيء في الهواء، ليزيد الكابوس المرئي من إيلامه للرائي..!

***

تكررت رؤيتي لها بعد ذلك في بهو البنسيون، وكانت قد بدأت تلاحظ انشغالي بها، وتجاري نظراتي بتوائمها، الأعين مرآة الروح ..

في إحدى الأمسيات تجرأت واقتربت منها، لم أعرف سر هذه الجرأة، لعله الشغف أو الملل من الاكتفاء بالنظرات..

- آنسة سها..؟

نظرت إلى متعجبة:



- حضرتك تعرفني..؟

- يعني تقدري تقولي كده..

تلفتت حولها لتنادي على أحد العاملين، لتشكوني، ولكني تابعت:

- مش هاخد من وقتك أكتر من خمس دقايق، هحكيلك على حاجة وهقوم على طول..

صمتت وأطرقت رأسها فجلست:

- اتفضل.. خير عايزني في إيه..

- بصي يا ستي أنا اسمي حسن..

قاطعتني قائلة:

- بيانات حضرتك الشخصية ماتهمنيش، ياريت ندخل في الموضوع على طول..

بدا صوتي واثقًا وأنا أقول:

- أنا حلمت بيكي..

- طيب وإيه اللي فيها.. طبيعي إن كل الناس بتحلم ببعضها..

صمتّ قليلًا قبل أن ألقي القنبلة بكل بساطة وأنا أركز على عينيها:

- أنا حلمت بيكي قبل ما أشوفك..

نظرت إليّ غير مصدقة وهي ترد بلهجة أقرب إلى السخرية:

- من فضلك أنا معنديش وقت للكلام الفاضي ده..

- دا مش كلام فاضي، دا حقيقة، أنا فعلًا حلمت بيكي وبعدين شُفتك وما أعرفش ممكن أثبت دا إزاي .. كنتي لابسة أحمر في الحلم وابتسامتك كانت حلوة..



ابتسمت ثم قالت:

- إيه اللي أنت بتقوله ده.. أنت شكلك كده حد فاضي ومش لاقي حاجة تعملها..

- مش موضوع فضا على أدّ ما هي حاجة غريبة حصلت معايا وكان لازم أقولك عليها..

- طيب هستأذنك عشان لازم أطلع أوضتي دلوقتي..

- هنكمل كلام بعدين..؟

شردت لحظة:

- هفكر ..

***

قبل عدة سنوات ..

صيف عام ٢٠١٠..

لم تستطع «سمية» تلك السيدة الريفية البسيطة، التي تحمل أطنانًا من الهموم فوق كتفيها، إيقاف تلك الدموع الملتهبة التي تنساب من مقلتيها، وذلك الموت البطيء الذي يقذفها إلى شاطئ مجهول كزجاجة بها رسالة منسية..

كانت تبتئس على حال زوجها «عبد الرازق زيدان» ذلك الرجل المثابر الذي تشققت يداه واسمرت بشرته من العمل بالفلاحة في أرضه الصغيرة طيلة النهار، ذلك الرجل الذي كافح طويلًا من أجل أبنائه الثلاثة - فؤاد وسالم ومحمود - ومن أجلها هي الأخرى، كثور يدور في ساقية، لا هو يتوقف ولا هو يحصل على ما يريد .

كان مستكينًا في جلسته على تلك الأريكة الخشبية المنجدة والمهيئة للتفكك والسقوط في أي لحظة يزداد فيها الثقل جرامًا أو أقل، تغطي ركبتيه بطانية



خفيفة مرسوم عليها ورودٌ باهتة بنية اللون، يرتدي جلبابًا رماديًا بأكمام واسعة، تطبع ابنته الصغيرة قُبلة حانية على إحدى وجنتيه فتشعر بخشونة شعيراته المتناثرة في أنحاء ذقنه، والتي نبتت في الأسبوعين الأخيرين.. !

سكن في عيني الرجل انكسارٌ موجعٌ واستسلامٌ لاهتزاز صورته أمام المرآة، لكن الأوجاع التي كانت تنبعث من ذلك الجرح الرابض بالقرب من بطنه لم تسكن، ذلك الجرح الذي كان بابًا ملعونًا لانتزاع إحدى كليتيه بمحض إراداته، في عملية جراحية خادعة، لعلاج ما فيها من أمراض وهمية، حتى يتسنى له صحيًّا أن يكون مؤهلًا للسفر إلى إحدى بلدان النفط ..

كيف لم يستطع أن يلمح في عيون أولئك الأوغاد، الشرور الكامنة فيهم، وكيف لم يلحظ لعابهم الذي كان يسيل على اجتزاء أعضائه، وسرقة أغلى ما يملكه، لو كان قد تفرَّس في وجوههم الكالحة ولو قليلًا لكان قد استشفّ أنها أقنعة زائفة لها أحبال لتثبيتها خلف الأذنين.. في بعض الأحيان لا يكون هناك مجال للاستدراك بعد فوات الأوان للإدراك..!

كان يعلم أنه حتى وإن استطاع أن يلملم شتات نفسه وأن يستعيد عنفوانه وقواه، فلن يستطيع أن يقبض بيديه على أي انتقام؛ فالبحث عن بضعة أشخاص في مدينة مليونية كالقاهرة يبدو كعملية البحث عن رفات رجل، غرقت سفينته في أعماق المحيط..

القاهرة..! هذه المدينة المزدحمة بكل شيء، السكان، المسافرون، الغرباء، السيارات، الشوارع، المقاهي، محلات الطعام، عربات الفول، ضجيج القطارات، حبيبات العرق المتصببة على الوجوة، المباني الحكومية، الآثار، الشخصيات الهامة، الفقراء، الجرائد اليومية، المدارس، الفنادق الفاخرة، المراكب النيلية، النوادي، الحواري، بيوت الصفيح، والفيلات المؤطرة بأشجار عالية.. القاهرة، هذه العاصمة التي لا تهدأ أبدًا ولا تنام..!

***



مهما بلغت السعادة الفردية من علو ..
فإنها تظل محدودة وقاصرة ..
إلى أن نتشاركها مع من نحب ..



توالت مرة أخرى محاولاتها الواضحة في تجاهُلي، إلا أن إصراري على التقرب منها كان أقوى، كنت أحب ابتسامتها وطريقتها في الكلام، شعرت وكأنها ملاكٌ سماويٌّ قد جاءني من فردوس علوي، لكي يملأ حياتي الخاوية الرمادية ويمنحها لونًا لامعًا براقًا..

رأيتها مجددًا أثناء تناولها وجبة العشاء، فجلست في المقعد المواجه لها بكل ثقة:

- مساء الخير ..

- أنت تاني ..

- أنا مش عارف انتي بتضايقي مني ليه.. أنا شخص محترم على فكرة ومباشر.. يعني لو فيه أي أفكار مش كويسة في خيالك، ياريت تطرديها..

- أنا ما أعرفكش أصلًا عشان أكوّن عنك أفكار في خيالي.. بس مفيش مشكلة، اتكلم يمكن أفهم أنت عايز مني إيه بالظبط..

- أنا مش عايز أي حاجة.. أنا حابب بس نكون أصحاب..؟

- وإيه المناسبة..

- ما أنا قلتلك قبل كده وانتي اللي مارضتيش تصدقيني.. حلمت بيكي قبل ما أشوفك..

- في كل الأحوال دي مشكلتك أنت .. دا لو افترضنا إن كلامك مظبوط ومش بتهلوس ولا حاجة.. !

- انتي مكبرة الموضوع على فكرة، أنا يادوب عايز أدردش معاكي شوية.. لأني شايف الموضوع يستحق.. على الأقل بالنسبة لي.. ولو حسيتي إني بضايقك.. أوعدك إني مش هتكلم معاكي تاني..

تجاذبنا بعدها أطراف الحديث لوقت طويل وحكيت لها عني كثيرًا ،



فأنصتت لي باهتمام، وبدأت في الاندماج بالتدريج، فحكت لي هي الأخرى عن حياتها بقدر كان قليل، لكنني شعرت حينها بنجاحي في لفت انتباهها وإثارة إعجابها لأنها بادلتني الابتسامات، الابتسامات من إشارات القبول..!

تواصلت جلساتنا كثيرًا بعد ذلك، وكنت أتساءل في نفسي، هل كان مقدرًا لي منذ البداية أن أقابلها في هذا التوقيت الدقيق لكي تكون بجانبي؟!

كيف إذا رأيتها بقلبي قبل أن تراها عيناي، هل الإسكندرية معنية دومًا بأيامي الرائعة؟

كنت أزيح هذه التساؤلات جانبًا أغلب الوقت ولا أهتم، كل ما يهمني هو ما أنا فيه، سأعتني بالنتائج وسألقي بالمقدمات في أقرب سلة المهملات..!

لم تكن تحب أن أتجاذب معها الحديث حول أسرتها وعن حياتها الاجتماعية، أخبرتني أنهم مسافرون إلى الخليج منذ سنين، ويرسلون لها ما يزيد عن حاجتها هي وأخيها الذي يشاركها شقتها في أحد الأحياء القريبة، لم تكن على وفاق كبير معه، لذا فقد نزلت في البنسيون لتريح أعصابها حينًا، مسكينة سها، برودة التفارق وصقيع الوحدة يحاصرانها مثلي، أنا بسبب موت الأحبة وهي بسبب سفرهم، الأسباب تتعدد و تتلون وتطفو في النهاية نتيجة واحدة، كنت محقًا إذًا في إهمال المقدمات والأسباب..!

كنت أقابلها في كل مواعيد تناول الطعام والسهرات الليلية تقريبًا، في مطعم البنسيون، الذي كان يحرص على تشغيل أغنيات عربية قديمة طوال الوقت، أو إيطالية، تضفي نوعًا من الأصالة على المكان.. أهديت لها أغنية للعندليب وأهدتني أغنية لفيروز، فأيقنت أنها تبادلني مشاعر الإعجاب..!

كنت أدرك أنني شخصٌ انطوائيًا.. وأن هذا الترقب الذي أعيشه يعني أن عقلي قد التهمه الشغف.. وأسرهُ الفضول..



وأن شرارة التعلق بها في طريقها لإشعال مشاعري الخامدة.. و أن الزلزال قد بات وشيكًا.. ومتوقعًا..

وكنت أحاول أن أوقف كل هذا.. وأن أسيطر على ذلك التغير الذي ظهر فجأة.. كشعاع نور في وسط الظلام الحالك..

أو كشعلة نار في غابة موحشة.. وظلال الوحدة رغم ذلك تقتلني من الأعماق.. كم من مرة دفعتني برودة الوحدة إلى حب التلاشي.. وإلى الرغبة في الموت..

كم مرة سأصمد أمام نحيب نبضاتي التي تتوق إلى حرارة الحياة المشتركة.. فتعود إلى روحي من جديد ..

كم مرة أخبرني قلبي أنه يحتضر .. وأن الحب هو قِبلة الحياة والأمل الأخير ..

كل ذلك لم يكن يوازي عدد المرات التي قاوم فيها عقلي كل هذا .. بل وأنكره وشكك في وجوده.. وأخبرني أن كل ذلك حنين وقتي ورغبة في التغيير لا أكثر ..

ستودي بي إلى الهاوية ..

ربما لأنني كنت عاجزًا عن كسر حاجز الرهبة..

تجاة الذوبان في روح أخرى ..

أو لأنني أطأ بقدميّ في أرض جديدة لأول مرة..

كأول خطوة للإنسان على القمر..

البدايات دائمًا مربكة..

و لكن الحياة تحتاج إلى جرأة وحسم..

كي تخرج أسرارها الساحرة..

وأحاسيسها الفريدة..



ومع كل ذلك فقد بدا كل شيء هذه المرة مختلفًا.. واستثنائيًّا.. فلقد رأيت تلك الأمواج في عينيها شديدة الزرقة.. وعشت أيامًا ربيعية..

وإن كان الحب كقطار مندفع، فبإمكاني أن أجذب يد الطوارئ في أي وقت، لكي أجبره على التوقف من أجلي وتحقيق ما أريد .. كنت أسعد الناس قلبًا، وأكثرهم توقًا لبزوغ الشمس، شمس اللقاء المنتظر المتسارع، الذي يحوّل ساعات التأمل في ملامحها إلى لحظات خاطفة، أسرع حتى من ومضات البرق المتتابعة في السماء..

كان قلبي يحدثني أنه لا يوجد هناك ما أخسره، وأن المجازفة هي اختياري الوحيد حتى لا تذبل زهرة العمر الخضراء وأعيش بعدها في سنين الوحدة القاسية، لم يكن هناك فرار هذه المرة أمام تلك العيون التي كانت تحوي بداخلها وعود الحب والأمان..

***

حينما تلألأت النجوم في تلك الليلة، وتوسط القمر السماء ليضيء الملكوت اللامتناهي، سكنت رياح كانت قد اشتدت فجأة عدة سويعات بغير إنذار، نزلت إلى الأسفل، وألقيت السلام على سنيور «ماركو باولو» نجل «أنطونيو باولو» الإيطالي العجوز الذي أنشأ هذا البنسيون منذ وقت طويل، إلى أن توفي منذ سنوات قليلة ليتولى ابنه من بعده إدارة المكان، كان ماركو شابًا وسيمًا أخضر العينين صاحب ابتسامة ودودة ونظرات ذكية، لم أرَ فتاتي في المطعم، فسألته عنها، أخبرني أنها خرجت عند الغروب ولم تعد حتى الآن، لم يكن ذلك شيئًا معتادًا؛ لذا فقد أثار استغرابي، شغل ماركو سيمفونية إيطالية، بينما كنت أتناول طبقًا لذيذًا من الباستا..

عرفت بعد ذلك أنها عادت في ساعة متأخرة من الليل، لم أسألها عن شيء.. لا يحق لي أن أتدخل في أمورها الخاصة، كنت أريد أن أطمئن



عليها وقد كان، كل ما هو غير معتاد يسبب التوتر حتى وإن كان مبهجًا، تسارعت دقات قلبي حين التقت أعيننا، الأعين موصل جيد للحب، وللمشاعر وللأحاسيس وللكلام الصامت المغلف بالحنان، كانت الأزهار الوردية تفيض من عينيها لتحول ما تقع نظراتها عليه إلى بستان عطري ساحر وجذاب..

كانت تبادلني كل ما أقوم به، لا بد من أنها قد أيقنت أني شخص هادئ ومريح وطيب القلب؛ لذا فقد فتحت لي قلبها كشخص يفتح باب بيته لشخص غريب يطرقه، لكي ينقذه ويخبئه من عاصفة موسمية تضرب الشوارع والطرقات..

بعد عدة أيام، قمت بشراء شقة قريبة من البحر، يبدو أن إقامتي في الإسكندرية ستطول، أحب أن يكون لي مكانًا دائمًا هنا، حتى إذا ما اضطرتني الظروف للسفر إلى القاهرة، استطعت العودة إلى هنا في أي وقت..

سافرت إلى القاهرة لإحضار بعض الأوراق الهامة، وتوجهت إلى شقتي التي كانت قريبة من مسجد الحسين، أقرأ بعضًا من الجرائد اليومية بهدف تمضية الوقت، ولقتل الملل الذي لا يريد أن يفارقني وكأنه كالقطط بسبعة أرواح ..

أصبحت المياه المغلية جاهزة الآن لصنع كوبٍ من الشاي بالنعناع تزامنًا مع خفوت أشعة الشمس نسبيًا بالخارج لتخف الحرارة على المتجولين منذ الصباح كخلايا النمل النشطة..

اتجهت إلى البلكونة اللطيفة، وراقت لي فكرة التأمل في الشارع الصاخب الطويل، كنت أراقب المارة في صمت وأنا أرتشف من كوبي باقتصاد لكي يستمر في مرافقتي في وقفتي هذه أطول فترة ممكنة..



منذ المرة الأولى التي زرت فيها مسجد الحسين وروحانياتة تستقبلني عند بابه سريعًا وكأنني أصلي فيه منذ زمن طويل.. كانت صلاة الفجر بكل سكينتها وجلالها أسعد أوقاتي؛ حيث تداعبني نسمات النهار الوليدة لتلمس أعماقي جواهر السلام والإيمان العميق..

كانت الجنسيات التي تزور المسجد متعددة ومتنوعة وكان السائحين ينتشرون حوله في كل اتجاه، وخاصة في خان الخليلي لشراء الهدايا التذكارية المميزة، كنت أفكر كيف أن كل هؤلاء المسافرين قد أتوا من بلدانهم البعيدة لزيارة الحضارة المصرية بكل مراحلها التاريخية للتجول في دهاليز الماضي وأسراره في قاهرة المعز الخالدة..

كنت أراقب تلك الشقراء الحسناء والتي بدت لي أنها من بلاد شمال أورُبّا وكان جليًّا على ملامحها أنها في حيرة من أمرها وهي تتلفت يمينًا ويسارًا باحثة عن شيء ما.. حين استوقفت رجلًا كان يمر بجوارها بالصدفة يرتدي ملابس رمادية اللون رديئة الجودة، ودار بينهما حوار قصير وما لبث أن أشار لها باتجاه المسجد، ليبدو من ذلك أنها كانت تسأله عن مكانه..

كان كل ذلك طبيعيًا وغير لافت للانتباه، ولكن ما حدث في اللحظات التالية هو ما أثار اندهاشي واستيائي في الوقت ذاته.. حين همت تلك الشقراء في الانصراف بناءً على الوصف الذي أعطاه إياها الرجل.. استوقفها في خشونة منفّرة.. وطلب منها أن تعطيه نقودًا في مقابل إرشادها لمكان مسجد الحسين.. حينها نظرت له الفتاة نظرات كالسهام تحمل مزيجًا من الاستغراب والاحتقار وهي تخرج من أحد جيوب بنطالها الجينز الأزرق ورقة من النقود لم أتبينها.. اختطفها الرجل في سرعة ودسها في جيب قيمصه العلوي بكل امتنان..



شـعرت بالـدم يتصاعـد إلى رأسي وأنـا أشـعر بالهـواء ينفـد مـن رئتـيّ نتيجـة لمشاعر المهانـة التي وصمنا بهـا ذلك الطماع المعتوة والـذي جعلني أسرع في النزول عـبر درجات السلم الخافت مندفعًا للخارج لأنقذ ما تبقى من سمعة الوطـن ..

حين وصلت لمكان التلاقي بينهما، لم أجد أحـدًا.. وإنـما مئات الوجـوه المألوفـة الهائمـة في أحوالهـا اليوميـة بملامـح متجمـدة وكأن كل مـن كانـوا بالشـارع قد تـم إخضاعهـم لتجربة طبية غامضـة، تنزع البريـق من عيونهـم.

كانـت الفتـاة الشـقراء قـد إختفـت في لحظـات وتاهـت وسـط المـارة.. حتـى عندمـا بحثت عنهـا أمـام المسـجد لأعتـذر لهـا عـما كان.. لم أعثـر لهـا عـلى أثـر، شـأنها شـأن ذلـك الرجـل رديء الخلـق والثيـاب .

أمضيت ليلتـي والأفـكار تـراودني عـن صـورتي أنـا وأبنـاء هـذا البلـد في أذهـان هـؤلاء الـزوار والسـائحين، الوافديـن إلينـا مـن كل النواحـي والبقـاع.. إلا أنهـا رغـمًا عنـي، وبعـد تفكـير عميـق، وجدتهـا هـي الأخـرى.. قـد تاهـت وسـط الزحـام.. !

حين عـدت إلى الإسـكندرية في اليـوم التـالي، أبلغتهـا بخـبر شرائـي للشـقة، وعـن اسـتمراري في الإقامـة في البنسـيون الفـترة القادمـة حتـى أنتهـي مـن تجهيزهـا لكـي أنتقـل للعيـش فيهـا، فأظهـرت سـعادة جمـة، وأخبرتنـي أنهـا خطـوة قـد تأخـرت وأنهـا ترغـب في بقائـي هنـا دومًـا.. عـادت مبتهجـة إلى شـقتها، وابتهجـتُ أنـا لسـعادتها..

تأملـت غرفتـي بالبنسـيون والتـي كانـت انعكاسًـا لشـخصيتي المختلفـة بالمصادفـة البحتـة؛ فقـد كان اللـون الأزرق يهيمـن عـلى المـكان والـذي تنوعـت لوحاتـه العديـدة مـا بـين لوحـات تظهـر فيهـا أمـواج البحـر وأشرعـة السـفن، وأخـرى لقطـط بيضـاء تلعـب ببكـرات مـن الخيـط الملـون.. !



أنـا هنـا أنفصـل فيهـا عـن العـالم المزعـج بالخـارج وعـن همهـات البـشر التافهـة، وأسبح هنا في بحـور خيـالاتي اللذيـذة، فأسـافر إلى فرنسـا، وأقـضي ليلـة عيـد الميلاد في جـزر الهـاواي، و أقابـل المشـاهير، وأظهـر في البرامـج وعـلى الشاشـات، الأحـلام والخيـال زوجـان سـعيدان، والواقـع هـو ظـروف الحيـاة التـي تعكـر صفوهمـا..

كانـت أحلامـي تتجمـع هنـاك في شتاء باريـس عنـد بـرج إيفـل مـع حبيبـة تغير حيـاتي وتحـرك مشـاعري الراكـدة وتشـدو معـي أغنيـات فـيروز الشـتوية ..

تطلعـت إلى الثلـوج المتسـاقطة في الخـارج مـن خـلال نافـذتي الزجاجيـة وسرحـت بعيـدًا وأنـا أتنـاول قطعًـا مـن شـيكولاتة لذيـذة، كنـت أحبهـا في طفولتــي..

في نهايـة النهـار.. تناهـى إلى مسـامعي صخـب في الخـارج، فلـم أهتـم، لم أراقـب حتـى مـن خلـف الزجـاج.. لا بـد أنهـم حفنـة مـن التافهـين، الذيـن لم يعرفـوا حقيقـة هـذا العـالم بعـد.. سـأظل هنـا في هـذا الركـن البعيـد السـاكن، أقـرأ الكتـب وأدخـن وأسـتمتع بقهـوتي ولا أبـالي..!

يـا لسـطحية العقـول التـي تنشـغل فقـط بـما يـدور حولهـا، أنـا أنشـغل دومًـا بـما يـدور خـارج حـدود عالمـي، وتجذبنـي الأشـياء البعيـدة لا القريبـة.. !

كانـت قطـرات المطـر قـد بـدأت تتجمـع عـلى زجـاج النافـذة، بينـما إرتديـت بيجامـة النـوم الرماديـة، واسـتلقيت عـلى سريـري المريـح حتـى تهـت في غياهـب عـالم الأحـلام الدافـئ، بعـد أن أطفـأت أنـوار الغرفـة وبقيـت إضـاءة خافتـة تـأتي مـن الخـارج، لتؤنسـني في ليـل الشـتاء الطويـل..

كنـت أحـب أحيانًـا أن أسـتقل دراجـة أنيقـة لأسـير بهـا في محـاذاة البحـر، فأنطلـق مسرعًـا عـلى الطريـق النـاعـم المنبسـط لتداعبنـي تلـك النسـائم البحريـة



الباردة وما إن أصل إلى أقصى سرعة ممكنة حتى أفرد ذراعيّ في الهواء كطائر له أجنحة.. !

كنت أتخيلني كل ليلة كطفل في الماضي، في لوحة من اللون الرمادي، تغمره السعادة وهو يرقص مع وردة حمراء بكل براءة، رقصات طفولية، يتردد بعدها صوت ضحكاته في الفضاء الفسيح..!

***



« جمال الأماكن لا يكتمل ..
إلا بوجود الأحبة فيها..»



تـرددت العبـارة في ذهنـي وأنـا أتأمـل عينـيّ سـها السـاحرتين، في إحـدى أمسـياتنا اللطيفـة بكازينـو الشـاطبي، التـي كنـت أدعوهـا لهـا مـن وقـتٍ إلى الآخـر.. كانـت ترتـدي قميصًـا نسـائيًّا وسـاعة يـد بنفـس اللـون، وتلمـع عيناهـا في تألُّـق، يزيـن محياهـا ابتسـامة جذابـة تبعـث عـلى انفجـار ينابيـع الأفـراح في القلـوب المتصحـرة، فتصبـح مروجًـا خـضراء ..

طرحـت عـلى نفسـي سـؤالًا كنـت أعـرف إجابتـه.. هـل تحـدث الأشـياء الإعجازيـة حقًـا مـن قبيـل الصدفـة..؟

هـل الحـب في حـد ذاتـه، يعـد إعجازيًـا، كنـت أرى دومًـا أن الحـب هـو شـعور طبيعـي وفطـرة مغروسـة في البـشر، لا يوجـد مـا يثـير العجـب بشـأن تلـك الزهـرة البنفسـجية التـي تنبـت في القلـوب المحبـة البيضـاء.. كل مـا يثـير الاندهـاش هـو مـا يفجـره ذلـك الإحسـاس مـن قـدرات ومـن طاقـات في النفـوس، إن الأفعـال التـي نصبـح قادريـن عـلى القيـام بهـا والتغيـيرات التـي نسـتطيع أن نقـوم بإحداثهـا ونحـن تحـت تأثـير تلـك العواطـف الملتهبـة، هـو الإعجـاز بمعنـاه العميـق، إن الحـب هـو مجـرد دافـع لوقـوع أي معجـزة، نحـن المعجـزة..

- تعـرف يـا حسـن إني بعشـق ريحـة البحـر، ليـه مابيعملـوش معطـرات بريحـة البحـر..

- يعنـي كل حاجـة في حياتنـا هتبقـى صناعيـة، خـلي حاجـة واحـدة تفضـل طبيعيـة..

(ردت مبتسمة):

- عندك حق ..

- سها.. أنا كنت عايز أقولك حاجة مهمة..

ابتسـمت في خجـل وهـي تتحاشـى النظـر إلى عينـيّ، وشـعرت بهـا ترتعـد حـين لامسـت يداهـا بـكل حنـان ..



- اللي أنت عايز تقوله أنا عارفاه..

- طيب وإيه رأيك فيه..؟

- حابة أسمع رأيك أنت الأول..

- أنا شايف إن كل اللي حصل ده مستحيل يكون صدفة، دا قدر ومكتوب من زمان..

- طيب مش يمكن اللي هتقوله ده من ناحيتك أنت بس..

- لا ما أعتقدش..

- إشمعنى..

- عينيكي مبسوطة..!

ابتسمت ابتسامة واسعة وهي تومئ برأسها، معلنة موافقتها على ما أشرت عليه، حينها شعرت بالعالم من حولي يتلاشى ويذوب، ووجدتني في مركب يهتز على صفحة مياه بحيرة زرقاء شفافة، تشاركني فيه سها وقد احتل أعلى رأسها تاجٌ ورديٌّ، وسكنت وردة حمراء خلف أذنها اليمنى، بينما أضاء وجهها كل ما حولي، كشمس بيضاء، أشرقت على الوجود لأول مرة..!

مشينا سويًّا على سطح المياه، وخصلات شعرها المتمردة تتطاير في كل مكان، كانت قدماها أرق وأكثر نعومة من أن تحدث اضطرابًا في سطح البحيرة التي كانت تحيطها أشجار مليئة بثمرات من جوز الهند والعنب والرمان.. !

أصبحت سها تشاركني حتى في دراجتي، تحتضنني بيديها من الخلف، يلامسني شعرها المتطاير، تضحك وتضحك حين تمطر السماء علينا حبًّا، وتفرد يديها هي الأخرى أملًا منها أن تسبح في الفضاء بلا وزن وتطير..!



كنت سعيدًا على نحوٍ لم أعشه من قبل، وكأن سهام حبها المتوهج التي اخترقت أعماق قلبي، قد جعلتني ممسوسًا بمس سحري، بديع.. !

***

بعد أقل من أسبوع استيقظت مبكرًا في يوم عطلة هادئ، تكون فيه الشوارع خالية، وخطر لي أن أزور والدي ووالدتي في مدافن المنارة بمنطقة الإبراهيمية، وقفت أمام موضعهما وقرأت فاتحة الكتاب، دعوت لهما بالرحمة والسعادة، وضعت إكليلًا من الزهور بجوارهما، تومض في ذكرياتي طفولتي القديمة، حين كنت في حديقة مزهرة، تقذفني بعض الأيدي إلى السماء، لأعود إليها مجددًا، وصوت ضحكاتي البريئة يصدح ليشق الغمام..!

حين عدت إلى محطة الرمل، اشتريت قميصًا جديدًا وابتعت بعض الكتب التي غالبًا لن أقرأها، اشتريتها فقط لأنها جديدة . عدت بعدها إلى البنسيون، جائع النوم والطعام ، التهمت بيتزا الفواكة البحرية التي تم تقديمها في وجبة الغداء واستبدلت ملابسي بعد دش بارد.. نمت على إثره حتى المساء..

حين استيقظت، خرجت أنا وسها إلى مطعم جديد في وسط المدينة أخبرتني أنها تحبه . حين وصلنا سحبت لها الكرسي كي تجلس . كانت هناك منصة للرقص، صعدها القليلون حين انسابت موسيقى بدت لي خفية، سحبت يديها لنرقص سويًّا على ذلك الإيقاع الحالم، غصت في عينيها العميقتين، كانتا كتوأم يشع بالدفء والجمال، شمسين ساطعتين يشعان البهجة للوجود، رقصنا طويلًا واستسلمنا لتلك الحالة الروحية التي أخذتنا من نفوسنا إلى آفاق رحبة، حتى غبنا عن الوعي وعن الإدراك للمحسوسات من حولنا، انفصلنا عن كل شيء، فارتقينا إلى ذلك العالم الدائري الذي لا يدركه إلا القليلون، حيث الملابس المزخرفة والرقصات



البديعة التي لا تتوقف، سرت في عروقي دفقات متتالية من الطاقة، فشعرت بالقوة والعلو، قبل أن نتوقف عن الدوران حول أنفسنا تدريجيًّا، ونهوي بسرعة خارقة، أيقنت من خلالها أن الفقرة قد انتهت وأن الموسيقى قد توقفت.. !

حين جلسنا مجددًا، وبعد الاستفاقة من تلك الحالة العجيبة، تأملتها فبدت مختلفة، لاحظت مسحة حزن على ملامحها، فاعتراني القلق، وسألتها عما بها، فأخبرتني أن ذلك بفعل السهر وأنها على ما يرام، لم أصدقها وسألتها مجددًا:

- مالك؟ حاسس إن فيه حاجة مضيقاكي، ومتقوليش موضوع النوم ده، عشان مش داخل دماغي ..

- بُص يا حسن.. هو فيه حاجة كده مكنتش عايزة أقولك عليها، عشان مايحصلش مشاكل، بس لو مصرّ، ففيه واحد بيحاول يتعرف عليَّ بالعافية.. وحاول يتعرضلي أكتر من مرة ..

شعرت بالدماء تتصاعد إلى رأسي، وغلبني الانفعال وأنا أسيطر على تشنج خفيف في ذراعي الأيسر وأنا أرد عليها:

- ومكنتيش عايزة تقوليلي يا سها، هي دي برضة حاجة يتسكت عليها..

- مكنتش حابة يحصل مشاكل يا حبيبي، لأني عارفاك مش هتسكت..

- والشخص ده يطلع مين؟

- حد ماتعرفوش.. بس هو موجود هنا..!

- هنا فين..؟!

- هنا في المطعم اللي إحنا فيه، قاعد على ترابيزة في الركن اللي وراك عشان يراقبني.. !



اندهشت مما قالت وتلفتّ حولي، حتى أشارت سها إشارة خفيه لا تُلاحظ، إلى رجل أشيب يتناول طعامه بهدوء ..

- معقول الراجل اللي شعره شايب ده، هو اللي بيتصرف معاكي بالشكل ده؟

- المظاهر خداعة يا حسن، هو أنت فاكر إن كل الناس محترمة زيك، فيه ناس عينيها زايغة و يندب فيها مليون رصاصة مش رصاصة واحدة ..

- أنا لازم أقوم وأعرّفه شغله، لازم يعرف إن ليكي راجل دلوقتي يقدر يحميكي ..

- لأ طبعًا كده هنعمل شوشرة والناس هتتلم علينا، هو شافنا سوا وأكيد هيفهم لوحده إني بقيت مرتبطة وهيبعد من نفسه..

لم أجد الشهية لإكمال ما تبقى من الطعام المشوي اللذيذ الذي كنت أتناوله، وإنما رمقت ذلك الرجل مرة أخرى، والذي كان يغادر بهدوء، لنغادر نحن أيضًا وأنا أفكر في كل ما جرى، وأجد نفسي في عالمي الافتراضي مرة أخرى، بقدمين مخدوشتين، تغوصان في بحيرة الغيرة الملحية، فيحولهما الملح إلى جمرتين محترقتين، تشعلان حريقًا، يحرق كل الأشجار الخضراء الوارفة، ويصيب الطيور بالفزع، لتهاجر في غير موسم الهجرة، إلى سماوات أخرى، لا نار فيها ولا دخان.. !

* * *



الومضة الثالثة

«لا أحد يدري»

في وقت قريب مضي..

لم يتوقف صوت رنين التليفون الأرضي منذ الصباح، في مكتب الدكتور أشرف الأنيق، مما دعاه لفصل كابل الحرارة الرمادي، مكتفيًا بهاتفه الخلوي، الذي استدعى من خلاله الطبيب الشاب «هشام» ليصله بعد لحظات:

- مساء الخير يا دكتور.. حاسس إن فيه جديد..

- فعلًا، الفريق اللي بيتحرى معايا شغال كويس، فيه مستشفى كبيرة في القاهرة بيديرها دكتور اسمه «أكرم الأسيوطي».. المستشفى دي فيه معلومات إنها بتشتغل في تجارة الأعضاء البشرية من خلال دكتور شغال هناك، بالتعاون مع المدير نفسه طبعًا..

- كده الموضوع كبير يا دكتور، تجارة الأعضاء دي حاجة مش سهلة إحنا بنتكلم في جريمة..

- أنا فاهم كويس مدى خطورة الموضوع، وأول ما هنمسك حاجة في إيدينا، الملف ده هيترفع للمعنيين فورًا.. أنت عارف دكتور عدنان حَب



يختار حد من بره القاهرة، عشان مايكونش ليه أي علاقة بأكرم أو حتى يعرفه، ودي ناس ريحتهم فاحت، وأنت عارف إن دور البرد اللي كان عندنا، خلاص راح..

شرد هشام للحظات ثم لانت ملامحه وهو يغيّر دفة الحديث بلهجة مرحة:

- طيب مش هنتغدى بقى ولّا إيه يا دكتور اليوم كله كده هيروح مننا في الشغل..

- لا اتغدى أنت، أنت عارف إني بقيت بحب أتغدى بره الأيام دي، يعني تغيير جو ..

قالها وهو يتابع المارة في الشارع من خلف الزجاج ويسرح بذهنه بعيدًا، كأن أفكاره قد تحولت إلى طائر مجنح من زمن الأساطير، ساعدته أجنحته القوية في التحليق إلى الأعالي بلا حدود، كان يتساءل في نفسه كم من هؤلاء البشر المتكدسين في الطرقات قد فقد جزءًا من جسده دون أن يدري، أومأ برأسه إيماءة خفيفة وهو يتمتم بخفوت: «لا أحد يدري» .

***

مستشفى «west cairo» هذه الأيام ..

عاد ضوء البرق يلمع من جديد، ليُظهر كل ما خبأه الظلام من تفاصيل الأشياء الساكنة، ومن ملامح ذلك الرجل الأصلع، والتي بدت قاسية وهو يقطب حاجبيه بنظرة حادة، لم تفارقه طيلة حديث كامل دار بينه وبين شاب آخر يجلس في مواجهته، يرتدي بالطو أبيض، ناصع كثلوج القطبين، وبقلب أكثر سوادًا من الليالي الحالكة..

وبرغم سرية الجلسة، فإن قارئي الشفاه هذه الأيام لم يتركوا شيئًا للظروف، فقد بدا على ذلك الرجل الأصلع أنه يقول بصوت عميق:



- أنت متأكد إن كل حاجة ماشية تمام..؟

- طبعًا يا دكتور أكرم، عيب تسألني سؤال زي ده..

- والله أنا ما مخوفني غير ثقتك دي.. أحب أفكرك باللي إحنا بنعمله لو أنت مش واخد بالك، وأدّ إيه ممكن يضيع فيها رقاب كتير.. كتير أوي..

- جرى إيه يا دكتور مال قلبك بقى ضعيف كده ليه، كل حاجة إحنا مخططين ليها وماشية.. زي ما إحنا عايزين بالظبط..

- لو مشيت فعلًا زي ما أنت بتقول.. يبقى أنت دماغك دي خلاص كده.. عدت..

- هي إتكلفت غير على إيدك برضة يا كبير، عامة كله هيبان ..

إزداد سوء الطقس بالخارج بشدة وكأنه غاضب على ما دار بينهما من كلام، ودوى الرعد مرة وإثنتين وكأنها غارة سماوية تلقى بقنابل صوتية صاخبة في إحدى الحروب الطاحنة في زمن لم يأت أوانه بعد ..

***

- أيوة يا حبيبتي، أنا اتفقت مع الدكتور هشام صاحبي إنه هيجيب خطيبته معاه وهيقابلنا في السينما النهارده، هندخل فيلم سوا..

استمع للجواب ثم استطرد:

- على حفلة تسعة، هعدي عليكي من قبلها.. بس حاولي تكوني جاهزة بدري.. وعشان تلحقي.. ياريت تقومي تلبسي من دلوقتي..

أغلق الهاتف مبتسمًا، وإستعد للمساء الذي لم يتاخر كثيرًا، فقد غابت الشمس سريعًا وكأنها قد تأخرت على موعد ما في نصف العالم الآخر ..

- أخيرًا ظهرت يا خالد بيه، إيه يا راجل الغياب ده كله..

- جرى إيه يا دكتور، بية إيه وباشا إيه، إحنا اخوات، وبالنسبة للغياب



يا سيدي فأنت عارف ضيق الوقت عندي عامل إزاي، ما بصدق ألاقي وقت أغيّر فيه جو شوية، وبعدين ما أنا اللي كلمتك على الخروجة أهو، أنت محسسني إن أنت اللي دورت عليَّ يعني وفكرت تقابلني..

كان رد هشام على صديقه «خالد همام» ضابط المباحث المعروف سريعًا، وهو يشير إلى الباب المؤدي إلى قاعة السينما المزدحمة بالرواد مبتسمًا:

- طيب ما نكمل بقى كلامنا جوة بدل ما الفيلم يفوتنا، ولا إيه رأيكم يا جماعة..؟

أومأ الجميع بالموافقة الفورية، ليدلفوا جميعًا إلى الداخل ويستقروا على كراسيهم بهدوء.. مال خالد برأسه تجاه هشام هامسًا:

- مالك يا ابني شكلك مرهي أوى، فيه حاجة شغلاك..؟

- ضغط شغل بس، أنت عارف.. الموضوع ساعات بيفتح معانا لحد آخر الليل..

- عليَّ أنا برضو، يا ابني إحنا صحاب من زمان، قولي لو فيه مشكلة عندك يمكن أقدر أساعدك فيها ..

- والله يا خالد هو فيه موضوع كده تقدر تقول من أسرار الشغل.. لما يجي الأوان هحكيلك عليه..

- ربنا معاك يا سيدي، الإعلانات خلصت آهي والفيلم هيبتدي..

ابتسم هشام وهو يتابع ما يُعرَض على الشاشة بذهن شارد لا يخلو من القلق ..

***



أمضيت ليلتي أفكر في كل ما جرى، في سها وفي علاقتي بها، وجدتني أراجع كل شيء في ذهني، بدت لي فكرة خسارتها ضربًا من المستحيل، لن أسمح لأحد أن يؤذيها أو يحرمني منها، فهو بذلك يحرمني من حياة كاملة قد رسمتها في مخيلتي، لقائي بها كان قدرًا وكان لحكمة ما، لا شيء يحدث في هذه الحياة بلا سبب حتى أتفه التفاصيل التي نقوم بها أو نراها يكون لها تاثيرٌ قويٌّ في حياة الآخرين، العالم دائري دوار يتكامل كل ما فيه..!

شعرت بالحنين إلى أحبتي الراحلين فجأة، يا للحنين الجارف، فهو كائن ليليّ يتغذى على الذكريات، ولا يقتله إلا شعاع الشمس الحارق في الصباح، ليعود بعدها في المساء التالي من جديد، أكثر ضراوة وفتكًا، لتظل قلوب الحيارى الساهرين على هذا المنوال.. أرض المعركة بينهما..!

عادت خيالاتي مرة أخرى إلى سها، وبالتحديد ليلة الزفاف، وكيف أن ابتسامتها ستكون رائعة بفستانها الأبيض الجميل وبعينها المزينة بالكحل، حتى أسماء أبنائنا في المستقبل القريب كنت قد حددتها، لابد أن أسرع الخطى باتجاه الزواج، حتى ولو لم يمضِ على علاقتنا وقت طويل، فخير البر عاجله، تُرى.. هل سيكون زواجي بها بِرًا؟!

كانت كل هذه الأفكار والدوافع تدفعني إلى التعامل بشكل أعنف مع كل ما يهدد تلك الآمال وكل تلك الأماني اللذيذة، والإنسان حين يدافع عن أحلامه فإنما يدافع عن ذاته وعن الوقود الذي يهبه الحماسة والحرارة للاستمرارية في الحياة، عن حقه المشروع في تحقيق ما يتطلع إليه، قلت لنفسي: لن أتنازل عن ذلك مهما كانت الظروف..!

في نهاية هذه الليلة وعند الفجر، قمت بعمل مجنون، نزلت الدرج إلى الأسفل وتوجهت إلى الشاطئ، كان اللون الأزرق الباهت يهيمن على الكون، ما إن تسللت إلى الشاطئ، حتى بدأت في خلع ملابسي وحذائي،



لامست قدمي الرمال فنقلت إلى جسدي برودتها، سرت بخطوات مرتعشة في اتجاه أمواج البحر غير المستقرة، حضنت نفسي حين غمرتني المياه، وحين ملأت رائحتها أنفي، تجاوزت المياه كتفي حتى وصلت إلى رقبتي، كنت أتجمد من البرودة، وكانت أفكاري هي الأخرى تتجمد، توقف عقلي عن التفكير في أي شيء، لم يعد يشغله إلا شيء واحد، ذلك الشعور الثلجي الذي أشعر به، لا أعرف كيف تمكن جنوني وقتها من أن يقودني إلى كل هذا، هل حقًا كانت تلك هي طريقتي، في إجبار عقلي على التوقف عن الحيرة وكثرة التفكير..؟!!

***



«حين يملأ الخوف أرواحنا على من نحب..
فنحن أضعف وأقوى ما نكون ..
ضعفاء من الخوف على الحبيب..
و أقوياء من أجل حمايته..!»



قاومت الأرق عدة ليال بعدما ازدادت شكاوى سها من الرجل الأشيب الذي لم أره سوى مرتين، المرة الثانية كانت في إحدى الكافيهات التي كانت تحب سها أن ترتادها، اقترحت عليها أن أراقبها وأن تقلل من تحركاتها في الفترة المقبلة بقدر المستطاع، إلا أنها كانت ترفض ذلك بشدة لأنه بهذه الطريقة ينتصر عليها، أخبرتني أنها لن ترضخ لتهديداته، ولن تكون سجينة خوفها، وأنها تحتاج فقط إلى وجودي بجانبها، طمأنتها وعاهدت نفسي أن يدفع ذلك الرجل ثمن كل ما يفعله بنا في أول فرصة أراه فيها مجددًا..

أتاني صوتها عبر الهاتف مجددًا لكنه هذه المرة كان ضعيفًا ومتهدجًا:

- كان ماشي ورايا النهارده يا حسن، فضل يراقبني شارع بطوله وأنا بحاول أبعد عنه على أدّ ما أقدر ..

- طيب ماحاولتيش تقفي وتتكلمي معاه..

- فكرت بصراحة، بس أنا كنت خايفة أوي.. مجاتليش الجرأة إني أعمل كده.. خاصة إني كنت لوحدي..

- الموضوع ده ماينفعش يتسكت عليه أكتر من كده..

- هتعمل إية يا حبيبي.. أنا مش عايزاك تحط نفسك في مشكلة..!

- ساعات المشاكل هي اللي بتيجي لحد عندنا يا سها.. في الحالة دي مابيبقاش قدامنا حل تاني غير إننا نفكر فيها ونحاول نحلها..

كنت أعرف أن الأيام لم تحلُ في عيني إلا بعد لقائي بها، فأصبح البنسيون جنتي، وأصبحَتْ هي ملاكي، كيف كنت سأحتمل سخافة الملل ولا نهائية الفراغ إن لم نلتقِ، كيف كنت سأتحصل في النهاية على تلك الهالة الأرجوانية اللطيفة التي مازالت تحيط بي من كل النواحي، وتدفعني إلى فعل المستحيل، لا لشيء إلا للحفاظ على ما بيننا حيًّا إلى الأبد، بعض المحبين يرون الحب أمام أعينهم، يترنح، يلفظ أنفاسه الأخيرة، فلا يهتزون ولا يتحركون،



فقط يقفون مكتوفي الأيادي، معلنين الاستسلام التام.. أما أنا فلن أدفن حبي حيًّا، ولن أتوانى عن دفن كل ما يحاول أن يعرقل فرصتي الأخيرة ورحلتي الجامحة نحو النور، سأبدد ليل اليأس بنهار الإرادة وسأفتك بالظلام المستفيض في ظلمته، بعود ثقاب أضعه في جيبي، عود حاول العالم بأكمله أن يجعله رطبًا، ولكني نجحت في إشعاله..!

كادت الخيالات أن تاخذني مرة أخرى إلى عالمي الافتراضي العجيب إلا أنني قاومت وتشبثت بالواقع، لم يعد أحد يتشبث بالواقع سواي، ليس لأنني أحبه ولكن لأنني أدركت أن معركتي الحقيقية تدور رحاها في عالمي الواقعي وأن انتصاري فيه أفضل ألف مرة، من انتصار وهمي في الخيال..

***

- اطمن يا دكتور الخناق بدأ يضيق عليهم وقربوا يقعوا خلاص، قريب أوى هتسمع أخبار كويسة ..

استمع الدكتور أشرف إلى الرد عبر الهاتف ثم تابع:

- وأي جريمة يا دكتور، دي ناس بتقطع في البني آدمين وهُمّا على الحيا، بيسرقوا من جسم الناس ويبيعوا للي يدفع أكتر، مزاد مفتوح على أجسام الناس، أنا هجيب الأوراق والحاجات اللي معايا وهاجي لحضرتك القاهرة خلال الأيام الجاية إن شاء الله..

***

أتاني صوت كمال مرحًا وهو يطلب مني أن نتقابل معاتبًا إياي على تجاهله طوال الفترة الماضية، كان معه كامل الحق فأنا لم أقابله منذ المرة الأخيرة ولم أسأل عن بقية أصدقائنا القدامى، لم أفكر حتى في العودة إلى العمل أو استكمال حياتي بطريقة طبيعية، وإنما تقافزت بين الأحداث كقط مفزوع وسلكت مسارات فرعية متشابكة ..



اتفقنا على التلاقى وآثرت أن أستقل الترام حتى أتوحد أكثر مع روح الإسكندرية الخفية المنسابة بداخلي، كانت أولى المحطات هي محطة الرمل التي كانت عبارة عن صحراء رملية في بدايتها حتى زحف إليها العمران وانتشرت بها الأبنية الحديثة ذات الطابع الفلورنسي، وعاش بها الشاعر اليوناني كفافيس وكبار الأدباء حتى أجاثا كريستي قد زارتها يومًا ..

رأيت بعد ذلك جامع إبراهيم الذي قام بتصميمه المهندس المعماري الإيطالي ماريو روسي، وكان قد أقيم هذا المسجد في الذكرى المئوية لوفاة القائد إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا والي مصر الأسبق ومؤسس العسكرية المصرية الحديثة..

بعد ذلك توقف الترام في الحي الملكي «البرخيون» أثناء عصر البطالمة والمسمى «الشاطبي» اليوم، الذي كان يضم المكتبة القديمة والمجمع العلمي «الموسيون» اللذين استمرا يبثان الثقافة إلى العالم إلى أن تم إحراق الحي بأكمله بكل ما فيه من معابد ومقابر ملكية، كما شهد انتحار كليوباترا بعد معركة أكتيوم البحرية وقصتها الشهيرة مع أنطونيو، وقد عاش فيه الفيلسوف اليوناني أفلوطين وأرخميدس عالم الطبيعة والرياضيات، وهيباتيا الفيلسوفة السكندرية التي تم سحلها في شوارع الإسكندرية ذات النتوءات الحادة، وكانت ضحية لفترة من التعصب الديني إبان حكم الإمبراطورية الرومانية منذ زمن بعيد..

غفوت قليلًا حتى وصلت إلى محطة سيدي جابر التي اتفقت مع كمال على التلاقي في إحدى مقاهيها الصغيرة، تصافحنا وهو يسألني بقلقٍ عن الإرهاق الذي يبدو على ملامحي فطلبت كوبين من الشاي الممزوج بالنعناع وحكيت له عما يؤرقني فانزعج وأخبرني بأن الأمر خطير :



- يا ابني أنت ناقص؟! أنت مش لسه طالع من تجربة صعبة وما صدقنا إن أعصابك بقت هادية وهتبدأ بقى تشوف حياتك وترجع لشغلك اللي أنت من ساعة ما أخدت منه أجازة مافكرتش حتى تسأل على وضعك فيه وصل لإيه ..

- يا كمال اللي أنت بتقوله دا كله أنا عارفه وفاهمه كويس، بس دي حاجة مش بإيدي، أنا فعلًا البنت دي بحبها، وهيبقى عدم رجولة مني إني أسيبها في موقف زي ده لوحدها، وبعدين إحنا اتربينا على النخوة والشهامة، مالك ياعم بقيت مصلحجي كدة ليه ومحسسني إني بكلم واحد تاني.. دا أنت كنت مصدعنا أيام زمان بالحب والإخلاص والرجولة أيام البنت إياها اللي كنت بتحبها في الكلية..

- يا ابني افهمني، أنا مقدر كل اللي أنت بتقوله وماعنديش فيه مشكلة، كل الموضوع إني خايف عليك ومش متطمن، ومش عايزك تدخل نفسك في ورطة أنت مش قدها، إية عرفك الراجل دة ممكن يكون شغال إية ولا وراه مين.. إحسبها كويس يا حسن وإوعي تروح تضربه أو تعمل حاجة متهورة.. صدقني يا صاحبي أنت مش حمل صدمة جديدة.. !

كانت أعرف أنه محقٌّ في كل ما يقول، ولكنني كنت محاصرًا بين اختيارين لا ثالث لهما، فإما أن أزيح المشكلة برمتها بعيدًا عني وأرتاح وحينها أخسر سها، أو أنني أظل بجوارها لأواجه ذلك الرجل المعتوه بكل طريقة ممكنة، شعرت أنني إن خذلتها، سأفقد هويتي، ستكون سمائي بلا قمر وليلي بلا أحلام..! تصالحت مع نفسي وقلت: لم أكن جبانًا يومًا ولن أكون..!

***



بعد عدة أيام..

الطقس حار على غير العادة ..

عنـد الظهـيرة لفحتنـى حـرارة شـعاع حـارق نفـذ عـبر الزجـاج وكأن الشـمس قـد أرسـلته خصيصًـا مـن أجلي.. ينطـوي بداخلنـا الليـل، بـما فيـه مـن أحـلام وحنـين وخيـالات، حـين يوقظنـا شـعاع.. شـعاع شـمسٍ، يعتقـد أننـا نيـام منـذ أن غـاب عنـد الغـروب.. كانـت رؤيـاي الليلـة الماضيـة.. عجيبـة..

أرواح تتجول وسط الضباب..

تبدو مضيئة خلف الزجاج البارد..

لا أعلم من أين أتوا..

أو إلى أين هم ذاهبون..

هم فقط ينسابون ..

يتشابهون من بعيد..

أما أنا..

فجسدي يمنعني من العبور..

روحي تريد أن تتحرر..

أن تطير ..

أن تنساب..

روحٌ منهم تتوقف عن التجوال ..

و تنظر باتجاهي باهتمام ..

لا بد أنها تعرفني..

تنظر إليّ بشوق ..



تلامس يديّ من خلف الزجاج ..

ينتابني إحساس عجيب بالألفة..

أحاول أن أتبين ملامحها..

و لكني لا أراها..

أو أنني لا أستطيع أن أبلغ درجة التركيز ..

التي تجعلني أميزها..

يأتي أحدهم ليرغمها على الرحيل..

بطريقة حانية..

و كأنه يواسيها..

أشعر بحزنها وهي تبتعد..

و تبتعد..

و تتوه وسط الزحام..

تترك خلفها شلالًا من الحيرة ..

و الفضول..

و الحنين غير المبرر..

أتساءل:

لماذا أنا أزرق..

ولماذا هي بيضاء..؟!

و لماذا يلتف من حولي الزجاج ..

كالسياج.. !



الضباب ..

ينتشر من حولي أكثر ..

و كل شيء..

يزداد غموضًا..

يحل الظلام بالتدريج ..

أهبط على درج حجري قديم..

يقودني إلى جُب سحيق..

يبدأ كل شيء في الاختفاء ..

عندما ينتهي الليل..

ويحل الصباح..

الأعجب من كل ذلك .. أن تلك الرؤية مازالت حتى هذه اللحظة تجول بخاطري بوضوح و كأنها حقيقة، أو حلم، ليلة ما، سأكون خلف الزجاج، روحًا حرة بيضاء..

فكرت في أن أبحث عن شخصٍ ما يفتيني في تلك الكوابيس، وربما أسأله أيضًا عن مدلول تلك المسلة الفرعونية الشاهقة، التي لم أتوقف عن التفكير فيها منذ أن رأيتها في غفوتي، لكنني خفت من أن يتاجر بمخاوفي وأن يدفعني إلى أوهام يحقق من خلفها مآرب خاصة، إذا كان بعض الناس يتاجرون بالدين، فلم لا يتاجر هو بها يقلقني، حقًا.. إن الكهنة، هم أسوأ من على هذه الأرض وليس الشياطين..!

فتحت عينيّ بصعوبة وتثاءبت بخمول وأنا أنهض بهدوءٍ لأستند إلى وسادتي الناعمة، قمت بإخراج سيجارة ودسستها في فمي ليتلاقى دخانها مع دخان السخان الذي يحوى ماءً مغليًا صببته في كوب مجهز بمعلقتين



مـن السـكر وكثـيرًا مـن حبيبـات الشـاي وأنـا أغلـق الشـيش الملتهـب مـن الحـرارة وأضيء اللمبـة التـي تتوسـط سـقف الغرفـة..

التقطت هاتفي وتفحصته، وجدت مكالمات من سها منذ ما يزيد عن ربع ساعة، اتصلت بها فأتاني صوتها مرهقًا:

- صباح الخير يا حبيبي، معلش رنيت عليك وأنت نايم..

- ولا يهمك يا حبيبتي، مال صوتك..؟

- تعبانة شوية يا حسن وقاعدة لوحدي.. أخويا سافر لهم من كام يوم الخليج..

- أنا لازم أجيلك دلوقتي مينفعش تبقى لوحدك في الحالة دي..

- مش عاوزة أتعبك معايا أو اكون حِمل عليك..

- إيه الكلام اللي بتقوليه ده، أنا نازل حالًا وهجيب حد معايا يكشف عليكي..

- لا لا ماتعملش كده، الموضوع كله شوية برد ومش محتاج للكلام ده..

- خلاص يا حبيبتي دقايق وأكون عندك..

أنهيت المكالمة وتنهدت تنهيدة أخرجت بها ما في رئتيّ من هواء حار، وبدأت في ارتداء ملابسي متوجهًا إليها في شقتها الواقعة بحي محرم بك في وسط المدينة، ركبت سريعًا سيارتي الجديدة، متوسطة السعر التي ساعدني كمال في شرائها بمقابل معقول، تحركت بها.. توقفت سيولة الطريق بعض الوقت فنجح حينها التكييف وأسطوانة موسيقية كلاسيكية في فصلي عمّا يحيط بي، التكييف.. ذلك الجهاز الذي يغمرك بكل هذا القدر من الانتعاش والارتياح ويخفف عنك حرارتك، كان عليهم أن يهبوا مخترع التكييف أرفع وسام في التاريخ ..!



وصلت إلى العنوان، وبعد العناء في إيجاد مكان لركن السيارة قمت باستقلال المصعد إلى الدور الثامن، ما إن وصلت إلى الشقة حتى ضغطت على زر الجرس، لم تستجِب سها لرنين الجرس وإنما سمعت صوتًا آخر عجيبًا، كان صوت جلبة واضح يأتي من الداخل فاعتراني القلق الشديد. طرقت الباب كثيرًا بلا أي إجابة أو رد، حاولت كسر الباب بكتفي القوى عدة مرات حتى نجحت، وهنا كانت تنتظرني مفاجأة مدوية.. للغاية..!

❋ ❋ ❋



الومضة الرابعة:
«الثور الصقلي»..!

ما إن انكسر الباب الخشبي حتى دخلت إلى الشقة بسرعة كالممسوس، حينها وجدت أمامي مشهدًا مفزعًا، آخر ما كنت أتوقع أن أراه حتى في أسوأ كوابيسي..

رأيت سها تمسك بتلابيب ذلك الرجل الذي كان دومًا ما يطاردها وهو ينهرها بشدة وبدا الاثنان في حالة من الشجار العنيف..

شعرت بالزمن يتوقف وبقلبي يدق بسرعة وتملكتني حالة غضب عارمة كشلال أسود يضرب الصخر بكل شراسة مما يفعله بها رغم أنها مريضة، كيف يجرؤ شخص كهذا أن يتعدى على فتاة رقيقة مثلها بهذه الطريقة المهينة، أيقنت أن هذه هي فرصتي في أن أنهي هذا التهديد الذي أصابني بالأرق وعكّر صفو حياتي التي تخيلتها كجنة عالية في السماء.. فرصتي أن أقول له إني موجود وأن طريدتك ليست بمفردها هذه المرة وإنما هناك ملاكٌ حارسٌ يستطيع حمايتها من أوجاع الحياة ومن وحوش البشر، الوحوش الأخطر في نظري من الأسود المتجولة في البرية، فهي على الأقل، لا تأكل إلا حين تكون جائعة ولا تفترس إلا عن احتياجٍ فطري مُلِح ..!



شعرت بالنيران تشتعل في جسدي و كأن أحدهم قد وضعني داخل ثور صقلي(*)، إشتدت التشنجات في جسدى وشعرت بالشرر يتطاير من عيني، لأتحول إلى شيطان مريد أصاب عقله التشويش وعجز عن السيطرة على طبيعته الملتبسة، إندفعت بإتجاة الرجل كالإعصار وكان أضعف من أن يقاوم فإختل توازنه مع أولى ضرباتى التي طرحته أرضًا كذئب جريح، كنت أكيل له اللكمات القوية المتتالية بيد حجرية صلبة والرجفات تهز أركانى وتجعل حركاتى هيستيرية ومتشنجة حتى بدأت يداه في التراخى بالتدريج وكف عن محاولة إبعادى عن جسده وسكنت أنفاسه المتهدجة تمامًا، سكنت إلى الأبد ..

لم أستفِق إلا والشقة مليئة من حولي بأشخاص لا أعرفهم، لم أرَ سها بينهم، انهالوا عليّ بالضرب وقيدوني وأنا أقاومهم بصعوبة، شعرت حينها بالاختناق وبعدم الاتزان حتى سمعت صوت أبواق سيارات الشرطة يملأ مسامعي، ليتم اقتيادي إلى قسم الشرطة القريب سجينًا في زنزانة مظلمة.. ضائع وتائه ووحيد..

***

غمر الأسى هشام ودمعت عيناه بعد أن نما إلى علمه خبر وفاة الدكتور أشرف وإصفر لون وجهه كالليمون، كان مصدومًا ومحمومًا بالغضب بشكل مرير وبدرجة لم تصل إليها أحاسيسه من قبل ..

لم يكن الدكتور أشرف مديره في العمل فحسب وإنما كان بمثابة أبًا روحيا له، كان يعوضه عن والده الراحل ويعطية القوة ويعلمه الصبر

---

*) الثور الصقلي: ثور مجوف من البرونز قام بصنعه الناحت بيرليوس الأثيني في العام ٥٥٠ قبل الميلاد، وكان به باب يتم وضع المجرمين فيه ويغلق عليهم، ثم يتم إشعال النار تحته، وما إن يسخن المعدن حتى يودي بحياة من بداخله بسبب الحروق، وكانت عظام المجرم المحترقة يصنع منها أساور تباع في الأسواق.



حتى النجاح، كان دائمًا ما يقول له أن مهنة الطب رسالة انسانية منذ الأزل، فليس بالمداواة والتطبيب تكون طبيب، وإنما بالرحمة والعطف قبل كل شيء ..

مازالت كلماته تلك تتردد في جنبات روحه ومازالت ترسم خطوطًا لطالما سار عليها وأحبها ومازالت الغصّة في حلقه في غمرة هذه الذكريات لا تريد أن تتبدد وكأنها أصبحت جزءًا لا ينفصل عنه..

كان يتساءل عما أصاب هذا العالم وكيف أصبح جنونيًا ودمويًا بهذا الشكل ولم تزداد الشرور والآثام يومًا بعد يوم..

كان يثق في أستاذه كثيرًا، ورغم ذلك كانت ظروف مقتله بهذه الطريقة لغز كبير وعلامة استفهام حائرة في فضاء عقله، لا يجد لها أي تفسير أو جواب، فما الذي دفع الدكتور أشرف أن يذهب إلى هناك وما الرابط بينه وبين ذلك القاتل الغريب الذي لا يعرفه، قد يكون للملف الخطير الذي كان يعمل عليه دخل في ذلك..!

كانت الجنازة مهيبة، تم تشييعها من مسقط رأس الطبيب الراحل بإحدى الأقاليم المصرية. اتشح الجميع بالسواد، فبدا الوجود كئيبًا، غربت الشمس، فأثار غروبها الأشجان.. يا لضعف البشر حين يحزنون..!

ازدادت أوجاعه أكثر واهتاجت عليه الأحزان حين رأى الطفلتين الجميلتين يتيمتين، منكسرتين وسط السائرون الذين سيعودون حتمًا إلى بيوتهم في آخر النهار وكأن شيئًا لم يكن، أسرة الأب الراحل الصغيرة فقط هي من ستكتوي بنار الفراق، فها قد انهار الجدار الأبوي الذي كانوا يشعرون خلفه بالأمان، وبقت حصون الأمومة المنيعة كآخر خطوطهم للدفاع..

حين أفاق من كل ما يعصف بباطنه، أدرك أن ذلك اليوم الحزين قد مر



عليه أسبوعًا كاملًا، فتنبّه فجأة أن عليه عبئًا ثقيلًا لابد أن يحمله، من أجل الانتقام، من أجل ألا تكون هذه التضحية هباءً منثورًا أو موتًا مجانيًا بغير حساب.. من أجل الضحايا، الذين تسلب أجسادهم كل يوم كعُقد تنفرط حباته بلا صوت على الطريق..

أدرك ضرورة أن يسبح بذراعيه ضد التيار وأن يسير على الدرب وأن يستكمل ما أطلعه عليه الدكتور أشرف من معلومات حتى وإن لم يكلف بذلك رسميًا، فالأمر لا يحتمل ولابد أن يواصل مسعاه بكل شجاعة وتصميم، لأنه لم يعد يملك أي رفاهية للاختيار..

كان يريد مقابلة ذلك القاتل والتواجه معه، ولا سبيل لذلك إلا من خلال صديقه ضابط المباحث، سيطلب منه إذًا تحضير جلسة لهما ليعرف حقيقة ما جرى ويعرف الدوافع التي دفعته للقتل، كان ذلك هو طرف الخيط..

***



بعد عدة سنوات..

التجمع الخامس بالقاهرة..

شاب قوي البنيان واقفًا خلف شجرة عالية، يراقب إحدى الفيلات كالصقر، ويتابع مواعيد الخروج والدخول لمن فيها، يرصد مكان الحارس ومواعيد غفوته، يدرس المنافذ المختلفة، يتحسس ذقنه المشعرة، يدخِّن سيجارة بشراهة..

لم تكن تلك هي مرته الأولى التي يراقب فيها هذا المكان، وإنما سبقتها مرات عديدة، بهدف الوقوف على الطريقة المثلى للقفز إلى الداخل، لتحقيق غرضٍ ما قام بالتخطيط له جيدًا، وضع يده في جيبه، وانصرف عائدًا من حيث جاء وقد قرر أن تكون المرة القادمة

للتنفيذ..

لم يكن من السهل أبدًا التنبؤ بما يفكر فيه شاب منحرف مثله، قادته الظروف بطريقة ما، إلى الإدمان الصارخ للمخدرات، وإلى الطرق الجانبية الملتوية، وإلى الشوارع الخلفية للحياة، شاب تم تجريف أرضية عقله الخصبة وتم البناء عليها، دون أي مشروعية أو ترخيص..!

***

- أنا لازم أقابل الراجل ده يا خالد..

«قالها هشام منفعلًا عبر هاتفه الخلوي..».

- هخليك تقابله، بس لازم أعرف الأول أنت دماغك فيها إيه بالظبط، يعني.. ده راجل قاتل وردود أفعاله مانقدرش نحددها، متوقع هتطلع منه بإيه يعني..



- عايز أعرف الحقيقة، عايز أعرف هو قتل الدكتور ليه، وكان في إيه بينهم وصّله لكده..

- يا ابني ما ده هيبان في التحقيقات، مستعجل على إيه، كل حاجة هتتعرف وهتبان، أنا عايزك تهدى كده وتعقل، أنا مقدر أن أعصابك تعبانة من ساعة ما حصلت الكارثة دي..

عاد هشام لانفعاله مرة أخرى قائلًا:

- أنا مش هستنى تحقيقات نيابة، أنا عايز أتكلم معاه بالبلدي كده وش في وش، وأعرف منه إيه اللي حصل بالظبط..

- طيب اِهدى شوية، هعدي أنا عليك بكرة في المستشفى وهاخدك على القسم، وهقعدك معاه في مكتب ظابط زميلي، بس هكون موجود معاك في القعدة، ده شرطي..

- مافيش مشكلة.. اتفقنا..

***



«لا ينبغي أن ندير ظهورنا للغرباء..
لأننا أيضًا بالنسبة للآخرين..
غرباء..!».



كان ذلك الشاب الريفي اليافع، جالسًا في أحد المقاهي يدخن الشيشة بنوع من اللامبالاة كأمر يومي معتاد، يتطلع إلى المارة المتشابهين، بعينيه العسليتين، فلا يحرك ساكنًا أو يهتم، إلا إذا خطفت بصرة فتاة ما، يتوسّم فيها لمحة من الجمال، أو أناقة الملبس، فيتابعها باهتمام، ويبتسم إذا ما ألقى أحد الجالسين على الكراسي الخشبية المتراصة حوله على الرصيف، تعليقًا سخيفًا حولها..

بعد خروج المصلين من صلاة العصر، لاحظ تزاحم العديد من الناس لتشييع جنازة كبيرة، ترك ليّ الشيشة من يديه، وقرر أن يسير مع المشيعين، رغم جهله بشخص المتوفى أو حتى عائلته وأقاربه.. حقيقة الموت تحوي في باطنها دروسًا عميقة وقاسية، لكل من يريد أن يدرك حقيقة هذه الحياة، كان الوجوم يهيمن على وجوه من حوله، مما أجبره على أن يسير بينهم متأثرًا، بعد عدة خطوات، تسارعت أنفاسه، ولم يستطع أن يمنع تلك القصيدة التي استدعتها ذاكرته من فرض نفسها على عقله وتفكيره، قصيدة للشاعر الفلسطيني محمود درويش، كان بعض منها يقول:

لا أعرف الشخصَ الغريبَ ولا مآثره..

رأيتُ جِنازةً فمشيت خلف النعش..

مثل الآخرين مطأطئ الرأس احترامًا..

لم أجد سببًا لأسأل: مَنْ هُو الشخصُ الغريبُ..؟

وأين عاش، وكيف مات فإن أسباب الوفاة كثيرة..

من بينها وجع الحياة..

سألتُ نفسي: هل يرانا أم يرى عَدَمًا ويأسفُ للنهاية..؟

كنت أعلم أنه لن يفتح النَّعشَ المُغطَّى بالبنفسج..

كي يُودِّعَنا ويشكرنا ويهمسَ بالحقيقة..



(ما الحقيقة..؟).

رُبَّما هُوَ مثلنا في هذه الساعات يطوي ظلَّهُ..

لكنَّهُ هُوَ وحده الشخصُ الذي لم يَبْكِ في هذا الصباح..

ولم يَرَ الموت المحلِّقَ فوقنا كالصقر..

فالأحياء هم أَبناءُ عَمِّ الموت..

والموتى نيام هادئون وهادئون وهادئون..

و لم أجد سببًا لأسأل..

من هو الشخص الغريب وما اسمه..؟

لا برق يلمع في اسمه..

ربما هو كاتبٌ أو عاملٌ أو لاجئٌ وسارقٌ، أو قاتلٌ..

لا فرق..

فالموتى سواسِيَةٌ أمام الموت.. لا يتكلمون..

وربما لا يحلمون..!

سالت دمعة من عينيه، مسحها بيديه سريعًا، وانزوى جانبًا بعيدًا عن الجمع الغفير، لم يدرِ إلى أين يذهب، فهو لن يعود إلى المقهى، ولن ينغمس في سذاجة مَن يجلسون هناك، سيذهب إلى أمه فيُقبِّلها، فتحتضنه ويهدأ، وربما ينام قليلًا فيرى حلمًا جميلًا يجمعه بالفتاة التي يحبها.. كأن يرى نفسه مستكينًا في أحضانها وتطوقه بذراعيها، لتحميه من تقلبات الحياة وتُهدِّأ من روع نفسه، ربما أيضًا تُدفئه أنفاسها الساخنة أو حنان عينيها البريء فيمتلأ قلبه عن آخره، بالنشوة والسعادة والأمل..

***



في الظلام، وخلف الباب المعدني لغرفة الاحتجاز، استندت إلى الحائط المليء ببقع الرطوبة، مختنقًا بسبب امتناعي عن استنشاق كميات كبيرة من الهواء المطعّم بروائح عفنة كروائح الموتى، ومن حولي وجوه تحكي عما في نفوس أصحابها، وجوة شاحبة أو غاضبة، أو متهالكة، بفعل الزمن وأحداثه التي تركت علاماتها واضحة على ملامحهم. كنت أفكر، هل هم جميعًا في الأصل مجرمين؟!، أم أن الظروف قد ساقت بعضهم -كما فعلت معي- إلى تلك الهاوية السحيقة..!

كان المشهد الأخير في شقة سها، لا يريد أن يغادر مخيلتي، كل مرة كنت أراجعه فيها في عقلي، كانت تتراءى أمامي تفصيلة مختلفة، إلا أن تساؤلي الأكبر كان يدور حول اختفاء سها المفاجئ عن المكان، تُرى هل هربت مذعورة أو مصدومة، هل هي الآن تحاول زيارتي، هل تفكر في البلاء الذي أصابني، ويعذبها إحساسها بالذنب، فلم تنَم ولم تغفُ ولو حينًا، أو لعلها الآن تتفق مع أكبر المحامين للدفاع عني، والذي سيدفع أنها كانت حالة دفاع شرعي متحققة الأركان، فيقتنع القاضي بالدلائل التي سيقدمها، بما فيها شهادة سها عما جرى، وينتهي كل شيء..

كان مرور الوقت بطيئًا، ونظرات المحيطين بي، تبدو مريبة أكثر، يتحرشون بهدوئي وسكوني بنظراتهم ويتشككون في أمري، لماذا لا يهتم كل وغد فيهم بما يعانيه، ويترك الآخرين في مصائبهم..!

نظرت إلى الأعلى للحظات، اخترق بصري سقف الغرفة المحدودة، إلى ما وراء السماوات، قلت في نفسي: يا سيد الكون، يا من خلقت الإنسان حرًا ومتجولًا في أراضيك السبعة، لا تتركني في أغلال القيد، متواريًا عن أنوار شمسك..!

- تعالى يا حسن، الباشا عايزك، جايلك زيارة..



انتزعني صوت أمين الشرطة الواقف على الباب، وهو يشير لي أن أنهض.. خرجت معه من غرفة الاحتجاز بدون أن أتفوّه بأي كلمة، وكأنني أخرج من ظلمات ليل طويل، إلى براح النهار!

لابد من أنها سها قد جاءت أخيرًا، برفقة المحامي لتساعدني، مسكينة سها، لا تكاد تستفيق من لطمة، حتى تعاجلها الأيام بأخرى أشد..!

توقفنا أمام باب المكتب، والمدوّن على لافتته الجانبية عبارة «رئيس المباحث»، والجالس أمامه أحد المخبرين أسمر اللون، يتميز بوجود شارب كثيف على حدود فمه، يجاوره شجرة صغيرة خضراء للزينة، وكأنه يحرسها، عجبًا لماذا يحرص هؤلاء الناس دومًا على إنبات شواربهم..!

بعد برهة من الوقت أدخلني أمين الشرطة إلى المكتب الفاخر، أصابني الإحباط حين وجدت ثلاثة رجال، ميّزت منهم رئيس المباحث، لكنني لم أتعرف على الآخرين، لا بد من أنه تحقيقًا أوليًا عن الواقعة، أشار الضابط لي بالجلوس، ثم استأذن للانصراف وأغلق الباب خلفه..!

قال أحدهم:

- بص يا ابني، الدكتور هشام عايز يتكلم معاك شوية، يا ريت تلخص كده وتجيب معاه من الآخر!

نظر إلى ذلك الدكتور على مضض وبدا وكأنه يقاوم بداخله شيء ما..

- أنت مين وقتلت الدكتور أشرف ليه..؟

صمت قليلًا وأنا أنظر إليه متأملًا، ثم أجبت:

- هو دكتور!.. أنا اسمي حسن.. أما بقى بالنسبة لموضوع قتلته ليه، فأحب أقلك إني ماكنش في قصدي أصلًا إني أقتله..

سألني مجددًا بتوتر وبصبر قد بدأ ينفذ:



- ضربته ليه..؟

- الراجـل ده كان بيطـارد بنـت بحبهـا، وبيمـشي وراهـا في كل مـكان وبيحـاول يتعرضلهـا، ومـش كـده وبـس، ده راح عندهـا شـقتها كـمان عشـان يتهجـم عليهـا، لـولا إني وصلـت في الوقـت المناسـب..

سألني الأول باهتمام:

- وفين البنت دي دلوقتي..؟

- مش عارف، المفروض إنها هتقوملي محامي وتيجي تزورني..

- ويا ترى إيه اللي أخرها عنك ده كله، لعل المانع خير..!

أطرقت رأسي قليلًا إلى أن سألني مجددًا:

- عايز أعرف البنت دي اسمها إيه ولو معاك صورة ليها عايز أشوفها..

- اسـمها سـها وليهـا صـور معايـا عـلى الموبايـل، بـس مـش هسـمح إن حـد يأذيهـا..

- وفين الموبايل بتاعك..

- خدوه مني أول ما جيت هنا..

- أنت شفت الدكتور أشرف وهو بيطارد البنت دي..؟

أخبرتـه بالأماكـن التـي كنـت أراه فيهـا، فتعجـب، وأكـد أن القتيـل كان يعتـاد ارتيـاد تلـك الأماكـن بالفعـل، إمـا لتنـاول الغـداء أو لاحتسـاء القهـوة..!

خـرج الرجـل الأول -والـذي يبـدو أنـه ضابـط أيضًـا- مـن المكتـب ثـم عـاد بعـد عـدة دقائـق ومعـه هاتفـي، طلـب منـي إدخـال الرقـم السـري، حتـى أريـه إحـدى صـور سـها، ففعلـت، وانتهـت المقابلـة بعدهـا، لأعـود إلى الليـل مـن جديـد، هـا أنـا قـد عـاد لي مـن جديـد توقيتـي الخـاص.!

***



قبل عدة سنوات..

أواخر عام ٢٠١٠..

هام «عبد الرازق» على وجهه، في محطة رمسيس القاهرية، كالمجذوب، يرتدي قميصًا باهتًا وبنطلونًا أسود من القماش، وينتعل في قدميه حذاءً بنيًا جلديًا غير مريح، متوجهًا إلى تلك الشقة التي أجرى بها العملية الجراحية المشؤومة، وهو لا يدري شيئًا عما يجب عليه أن يفعله. وصل إلى مقصده، لم يجد البواب في موضعه، فصعد درجات ذلك السلم وهو يجر أذيال الاكتئاب خلفه، ويشعر أكثر بالهزال، قبل أن يقضي على البقية الباقية من معنوياته، قفل حديدي مثبت على باب الشقة، التي يبدو أنه قد تم إغلاقها تمامًا منذ أن كان موجودًا بها آخر مرة.

قرر العودة من حيث أتى، بعد محاولته اليائسة، البائسة، إلا أنه تقابل بمحض الصدفة مع بواب العمارة الذي كان يتنقل بين الأدوار بلا سبب ظاهر، سأله بلهفة عن الشقة، فأخبره أنها خالية من السكان ومعروضة للإيجار، حيث خرج سكانها منها بعد أول شهر من مدة الإيجار، سأله عبد الرازق عن العقد، فأخبره أنه لا يعرف عنه شيئًا وأن صاحب الشقة لا يأتي إلى مصر كثيرًا وإنما يسافر دائمًا في أغلب أوقات العام..

خمدت لهفته مجددًا، وانطفأت ملامح وجهه، وأطرق رأسه أرضًا، وهو يشعر بنار مستعرة بداخله، تكفي لحرق مدنًا بأكملها، ما الذي كان يتوقع أن يجده، وما الذي كان سيفعله لو كان قد وجد أولئك الأوغاد محتمين بوكرهم، كيف سيقوى على مواجهة تشكيل



عصابي كهذا، كان يبحث عن أي إشارة ضوئية يمكن أن تهديه إلى هوياتهم، ولكن هيهات فقد انقضت الصقور على فريستها وحلقت بعيدًا، بعيدًا جدًا عن مدن الضحايا...!

لم تكن رحلة العودة بأفضل من رحلة الذهاب، وإنما كانت تذكرته لعالم البلايا تذكرة للذهاب وللعودة، فقد لازمه فيها اليأس طيلة طريقه الطويل المليء بنباتات الصبار والأشواك، فكان عليه أن يحتمل فوق كل ما كابده، كثيرًا من طعنات الأشواك الأليمة وأن يتجرع مزيدًا من المذاق المر للصبار..!

***

غادر هشام القسم بصحبة خالد، الذي بادره بالسؤال وهما يستقلان سيارته الخاصة:

- إيه رأيك..

- مش عارف، بس الواد ده شكله مصدق أوي الكلام اللي بيقوله..

- طب تيجي إزاي دي، معقول برضو الدكتور أشرف هيمشي ورا واحدة يعاكس فيها، كلام مش منطقي طبعًا..

- أكيد طبعًا بس أنا حاسس إن في حاجة غلط، وإن طرف الخيط عند البنت دي، أنت هتعمل إيه بصورها صحيح..؟!

- إتقل.. هقلك دماغي فيها إيه، أنا حاولت أتصل بيها من عنده بس تليفونها بيدي مغلق، عامةً في حاجة كده عايز أتأكد منها الأول..



صمتا وكلاهما شارد في الطريق، الذي كان يركض تحت السيارة في اتجاه عكسي، شأنه كشأن كل شيء في الآونة الأخيرة.!

* * *

- خلصت يا ريس.. الزبون راح في شربة مية..

- تقصد مين، أشرف..؟

- وهو في حد غيره يا كبير، الواد خلاص خلص عليه، ولابس القضية لابسها..

اِعتدل أكرم الأسيوطي في جلسته وهب واقفًا وهو يسأل محدثه باهتمام شديد:

- طب والبت سماح أخبارها إيه؟

- سماح خلعت يا ريس بالفلوس اللي خدتها مننا وفص ملح وداب زي ما اتفقنا معاها..

- متأكد أن مافيش حاجة تربطنا بالموضوع..

- عيب عليك يا أستاذنا، مادام سعيد اللي بيمخمخ يبقى ماتخافش من أي حاجة، أدينا كده ضربنا عصفورين بحجر واحد، خلصنا من اللي بينخور ورانا وفي نفس الوقت ماحدش هيجرؤ يمسك الملف ده تاني..

ابتسم أكرم في ظفر بملامحه القاسية ولون بشرته المائل إلى الحمرة، وهو يشعر أن حِملًا ثقيلًا قد انزاح من على كتفيه، كان شعوره كشعور الطريدة حين تنتصر على مُطاردها، الذي ركض خلفها بطول الغابة كلها فخارت قواه قبل أن يلحق بها، وسقط منهارًا أو مغشيًا عليه.. طالت ابتسامته الواسعة ثم قال:



- أنا رأيي إننا نهدي اللعب شوية في المكان اللي بنعمل فيه العمليات الفترة الجاية، والناس بتوعنا اللي على القهاوي وفي العشوائيات اللي بيلقطوا الزباين، يختفوا خالص..

- اعتبره حصل يا ريس..

قال أكرم عبارته وهو يجلس على كرسيه الهزاز ويعود به إلى الخلف بكل عجرفة، مشعلًا سيجارًا كوبيًا فاخرًا يناسب تمامًا كل ما كان يفكر فيه..!

***



«الوصول إلى براح الحرية الحقيقية..
أصعب من الوصول إلى لؤلؤة..
تقبع بداخل محارة ذهبية نادرة..
في أعماق بحر هائج..!».



حين عدت إلى محبسي، غمرتني دوامات فكرية سريعة الدوران.. في بحار عقلي المضطربة وطالت لحيتي على نحو عبثي. بدأت أشعر بالشك والريبة يحلقان فوق رأسي، قررت أن أنفصل عن الواقع وأن أقيّم موقفي خارج الإطار الذي اعتدت عليه، تأملت كل شيء من مسافات بعيدة، فشعرت أنني انسلخت عن نفسي وصرت شخصًا مختلفًا، شخصًا متجردًا من العواطف والأحاسيس والذكريات، زدت من تركيزي فصفى ذهني وخلا من شوائبه، تراءت أمامي تفاصيل ناصعة، أنارت مخيلتي كشموس مضيئة، سطعت في الكون قبل خلق الإنسان..!

ذلك الرجل إذًا كان يعمل طبيبًا مرموقًا.. كيف لطبيب مثله أن يقدم على تلك الأفعال المشينة، لقد كنت أراه بعينيّ يتواجد في كل مكان نذهب إليه، الكازينو، المطعم، وحتى الشقة، هذا لا يدع مجالًا للقول أنها كانت مصادفات، إذا تكررت الصدفة فقدت جوهرها، وهو الندرة، هذا الرجل كان يطاردنا، أما كان عليّ أن أتحدث معه في إحدى هذه المرات قبل أن يتطور الأمر إلى التنازع والقتال، لا، لن أُحمِّل نفسي فوق طاقتها، لم تكن نيتي من البداية أن أقتله، لم أكن أتوقع التداعيات، حين تركته، كنت ألبي رغبة فتاتي في عدم الدخول في مشاجرات ومهاترات قد تجلب لي -فيما بعد- سلسالًا من المشكلات..!

زادت النظرات المريبة من حولي، وبات دخان السجائر خانقًا، كانت الحوائط مغطاة بكتابات ورموز، بعضها كان بغرض استجلاب الصبر، والآخر كان عبارة عن رسومات إباحية، خطّها شخص يعاني من كبت شديد، رائحة الركن الذي تم اعتباره حمامًا مريعة، أشنع من روائح الحيوانات العفنة الملقاة على الطرق في البلاد التي تشهد حروبًا أو مجاعات..

مهلًا، ما هي درجة الحرارة في هذا المكان اللعين بالتحديد، فأنا لا أكاد



أطيق وجود ملابس على جسدي، أود لو أخلع عني جلدي هو الآخر، فأستريح..! حتى تلك النافذة الضيقة المربعة لا تعتبر منفذًا، فتلك القطعة المعدنية المليئة بالثقوب المثبتة عليها، لا تسمح لنسمات الهواء بالمرور، وإنما تسمح فقط لقليل من أشعة الضوء الرفيعة بالتسلل إلى غرفتنا المعتمة حتى لا نعتقد أن العالم بالخارج قد اندثر أو أننا أموات.!

أتراني قد أصبت بلعنة الوحدة فما صرت قادرًا على التواصل..

أم أنني قد صرت منفيًا في عالمي البعيد..

في ذلك الفراغ المتجرد من كل شيء..

أهذا هو الموت حقًا..

أم أن الوحدة هي أولى خطوات الانتهاء!

هل ضاع الوقت واختفى الزمن..

هل احتضر الماضي وأجهض المستقبل..

وهل أصاب حاضري الشلل..

الصمت يغلف كل النواحي والأرجاء..

الشوارع خالية..

المدن غافية..

الكون يتداعى..

حتى صدى صوتي لم يعد له مردود..

لم يعد له أي وجود..

اللعنة الرمادية أصابت كل الألوان..

اندهشت حين رأيت قوس قزح بلا ألوان.

وحين رأيت الغروب..

بلا مشاعر الحنين البرتقالية..



وحين لم يعصف الربيع بالأحزان..

التلاشي يشعرني بالارتياح..
من وجع الحياة..
و من الملل..
برودة العدم تتخلل أوصالي..
و ترخّي أعصابي..
و أستسلم للنعاس..

أراني وأنا أتجوّل وحيدًا..
في طريق رملي ممتد..
قبل أضواء الفجر..
تبدو ملامحي مشوشة..
و أنا أنساب بلا خطوات..
علي الرمال..
و كأنني شبح..
أو طيف..
أسمع صوت أمواج قريب..
ربما هو محيط أزرق في نهاية الطريق..
محيط عجيب..
مهما اقتربت من شاطئه..
و من نسماته الباردة..
لا أصِل..!

❊❊❊



الومضة الخامسة

بارانويا..

- شفت المفاجأة..؟

ألقى خالد العبارة على هشام بحماس وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة بعينين لامعتين..

- إيه اللي حصل..

- البنت اللي أخدت صورتها، دورت عليها في قاعدة البيانات عندنا وعرضت صورتها على كام بنت من المسجلين عندنا في كذا قسم في أماكن مختلفة وطابقت صورتها ولقيتها.. شكّي فيها طلع في محله..

- وطلعلك إيه..

- مش هتصدق، البنت دي اسمها سماح مش سها وكمان مسجلة نصب..!

- معقول الكلام ده..

- زي ما بقولك كده وساكنة في منطقة عشوائية في القاهرة..

- ويا ترى الواد اللي في الحجز ده يعرف حقيقتها ولا مضحوك عليه هو كمان..



- لا سيبك ما الواد ده مش هتوصل معاه لحاجة، إحنا بندور دلوقتي على البنت دي، لأن هي طرف الخيط الحقيقي اللي هيوصلنا لكل حاجة.. المهم حد يعرف إن الملف اللي كان شغال عليه الدكتور أشرف، كان سايبلك نسخة منه..؟

- لأ طبعًا ماحدش غيرك يعرف..

- ولازم الموضوع ده يفضل سر، عشان ماتعرضش نفسك لأي خطر..

كان محقًا فيما يقول، فبمجرد أن يعرف قتلة الدكتور أشرف وصول الملف إلى شخص آخر، حتى يعاودوا إعادة الكرة معه، وإزاحته عن طريق قطارهم، الذي يسحق كل ما يعترض طريقه بلا أي تردد، وتحت عجلاته الحديدية..!

***

في اليوم التالي، راجع خالد عنوان الفتاة، من خلال الأوراق التي بين يديه، وتوالت دقات قلمه على المكتب وهو يفكر بعمق وتركيز. خفف من ضيق ربطة العنق الملتفة حول رقبته كالثعبان، ومرر أصابعه بين خصلات شعره ليحنو على نفسه، ويتأمل صورة له على الحائط توحي بالهيبة والوقار..

غادر مكتبه حين هدأت حرارة الكون، وانطلق بسيارته كصاروخ يتوجه إلى هدف لن يخطئه وصل إلى منطقة عشوائية، طرقها غير ممهدة وشوارعها ضيقة حتى تكاد بلكونات البيوت المتقابلة فيها أن تتلامس.!

سأل أحد المارة عن البيت المنشود، فتفحصه بنظرات متشككة للحظات، ثم أشار للمكان بنظرات عدائية ليس لها ما يبررها، تخطى شارعين ثم توقف عند الثالث، ترجَّل من السيارة حتى وصل إلى البيت الرابع من الجهة اليمنى، كان هناك سلم من الطوب الأبيض مكوّن من أربعة درجات، نزله إلى الأسفل وطرق الباب طرقتين بلا أي رد.



نظر يمينه ويساره، كان هناك صبية يستقلون دراجات متهالكة، وبضعة أشخاص يشبهون الرجل الذي قابله في بداية الأمر، شعر بنقاط مياه باردة تبلل رأسه فنظر إلى الأعلى، كان هناك من يقوم بنشر الملابس المغسولة لكي تجف، دقَّ الباب مجددًا وقد بدأ يشعر بالضيق، حتى فُتح الباب فجأة بهدوء..

أطلَّت من خلف الباب الذي تساقط طلاؤه فترك فيه علامات وقشور، سيدة كبيرة في السن، يبدو عليها الوهن ولها عينان مسكينتان، الروح البشرية من أعظم أسرار الكون، وهي مخبوءة ببراعة في داخل الجسد الإنساني رغم أنها تطل على العالم من خلال عينيه..!

- أنت مين يا ابني وعايز إيه..

- هو مش ده بيت سماح..

- أيوة يا ابني بس هي مش موجودة..

- أومال هي فين دلوقتي..

- يا ريت يا ابني كنت أعرف، البت سماح بتغيب بالشهر من غير أعرف عنها أي حاجة.

و لا حتى بتقولي هي هترجع إمتى..

- هو مش انتي تبقي أمها برضو..

- أيوة يا ابني بس هي على طول طفشانة ماعرفش بتروح فين ومابقتش قادرة عليها.. أمانة عليك يا ابني لو شفتها، تقولها الست القرشانة دي اللي اسمها أم إبراهيم عمّالة تجيلي كل شوية على فلوس الجمعية وأنا مش عارفة سماح شايلاهم فين..

صمت خالد وشعر بالخنق وهو يتأمل تلك التجاعيد التي تظهر جلية



في ملامح السيدة، شعر بالشفقة للحظات ثم صعد درجات السلم مجددًا واستقل سيارته مبتعدًا عن السيدة وعن الشارع وعن المكان بأكمله وبدا كل شيء كان يحسبه قريبًا منه، بعيدًا جدًا، كمركبة في الفضاء تبعد عن موطنها الأصلي مئات من السنين الضوئية.

* * *

ابتسمت تلك المرأة ثلاثينية العمر، بملامحها الجميلة القاسية، بكل دلال وهي تنظر إلى عينيّ

زوجها الطبيب مباشرةً وتمسك بيدها كأسًا زجاجيًا من الشمبانيا:

- مش قلتلك اللي يمشي ورا «سوزان» مابيخسرش، أنت دكتور آه، بس أنا كمان مش

قليلة، كل حاجة قلتلك عليها في الموضوع إياه، ماشية زي ما توقعت.

- يا حبيبة قلبي لازم كل حاجة تمشي زي الفل مادام انتي اللي مخططة ليها، أنا بس خايف تكوني بتضربي حاجة من ورايا بتعلي دماغك بالشكل ده..

تضحك ضحكة عالية قبل أن ترد:

- وهو أنا لو بشرب حاجة كنت خبيت عليك برضو، ما أنت عارف إن كل حاجة بنعملها سوا بيبقى

ليها طعم أحلى، تعرف أنا لو هيدخلوني الجنة ولقيتك مش معايا.. هدخلها برضو، أصل مافيش

حد عاقل يقول للجنة لأ..

قهقه الزوج بصوت أعلى وهو يرد:

- والله أنا كل ما أتكلم معاكي بحس إني واقف قدام نفسي في المرايا،



ماقدرش أعيش من غيرك يا سوزي ولا من غير أفكارك المجنونة دي، هي صحيح مجنونة بس عبقرية..

- أنا طول عمري ذكية وحلوة يا حبيبي.. بس مين يستطعم..!

ضحكا هذه المرة ضحكةً واحدة امتزج فيها صوتيهما وهما يقرعان كأسيهما ويرفعانه إلى الأعلى وكأنهما يشربان نخب انتصار وشيك..

***

عيادة الباطنة..

مستشفى « Alex Clinic»

عاد هشام إلى عمله بالمستشفى وشعر وكأنها مكانًا غريبًا لا يعرفه، كل شيء قد تغيّر، الأماكن بغير الأحبة، مجرد أطلال.. والجسد بدون الروح هو كيان ميت، ارتدى البالطو الأبيض، جلس على مكتبه، خلع نظارته الطبية، مال برأسه إلى الخلف، أخرج الهاتف وأخذ يقلب في بعض الصور المحفوظة عليه، دخل (عم صلاح) عامل البوفيه بفنجان من الإسبرسو:

- نوَّرت مكتبك يا دكتور هشام، وربنا يرحم الدكتور أشرف يا رب ويعوض أهله خير..

- إن شاء الله يا عم صلاح، ألف شكر يا راجل يا طيب..

- الشكر لله يا دكتور وربنا يحفظك يا ابني أنت واللي زيك..

لم تمر دقيقتان حتى دخلت الممرضة تسأله عما إذا كان جاهزًا لاستقبال المرضى الآن، أعاد نظارته إلى موضعها، وأومأ برأسه بالإيجاب..

أول المرضى، كان رجلًا طويلًا، عريض المنكبين، أسمر اللون، جلس على الكرسي، وأخبره أنه يشتكي من أوجاع مزمنة بالبطن، قام ليفحصه، لكن المريض كان قد نسى هاتفه مع أحد أقاربه بالخارج، استأذن ليحضره،



وما أن اقترب من الباب، حتى أغلقه سريعًا، واستدار بشراسة حاملًا في يده سبراي «Self defense» مُركز بخ منه بختين في وجه هشام الذي أخلت المفاجأة توازنه واتزانه، أوقعه الرجل في أرضية الغرفة ووضع يديه على فمه:

- لو صرخت هقتلك..

هشام بأنفاس متهدجة:

- أنت مين.. عايز إيه..؟

- الملف اللي كان مع دكتور أشرف فين.. انطق..

- ماعرفش.. ماعرفش.. مش معايا..

- بطل استعباط وقولي على مكانه بدل ما أخلص عليك.. ماتضيعش نفسك على حاجة ماتستاهلش..

- قلتلك ماعرفش عنه حاجة.. ماعرفش..

ثلاث دقات على الباب أثارت ارتباك الرجل، الذي انتفض ليفتح شباك الغرفة التي كانت تقع في الطابق الأرضي، لحسن حظه، ويقفز إلى الخارج بلياقة عالية، ويختفي في ثوان معدودات كالبرق!

***

- الحمد لله إنك ادتني الملف قبل ما كل ده يحصل..

تحسس هشام موضع اللكمة التي تلقاها تحت عينيه ورد متألمًا:

- كنت عارف إنه هيكون في أمان أكتر وهو معاك يا خالد..

- طب ما تروح تسلمه يا ابني، مخليه معاك بتعمل بيه إيه..

- لسه الحاجات اللي فيه ماكملتش، البيانات اللي فيه ناقصة، وأنا لسه بتوصلني حاجات من الطقم اللي كان شغال مع دكتور أشرف، يعني تسليمه بالشكل ده هيخليه مالوش لازمة..



- هما أكيد توقعوا إن دكتور أشرف ممكن يكون إداهولك عشان أنت كنت قريب ليه جدًا، على العموم جت سليمة المرة دي، أنا بقا عندي ليك مفاجأة..

- مفاجأة إيه..؟

- لقينا البنت..

- سماح؟؟ وساكت كل ده، ده هي البنت دي اللي هتوصلنا لكل حاجة..

- جاتني معلومات شبة مؤكدة إن البنت دي حاليًا في قرية في الساحل الشمالي، بعتلها اتنين ظباط وزمانهم بيقبضوا عليها دلوقتي..

ما أن أنهى عبارته حتى رن جرس الهاتف بصوت متصاعد متكرر، وكأنه صدى صوت يتردد بين جبال شاهقة في الخلاء..

أجاب خالد وأنصت إلى الطرف الآخر بتركيز عميق، قبل أن يضع السماعة مرة أخرى وهو يتحاشى تلاقي عينيه مع عينيّ هشام الذي لمح في عينيه التساؤل، قائلًا بمنتهى الأسف:

- طلع تشابه أسماء. مش هي..

أطبق عليهما الصمت وشرد كل منهما في اتجاه مختلف، لكنهما تطابقا في شيء واحد، تطابقا في كونهما اتجاهين إجباريين..

***

- الواد ده شكله ماعهوش حاجة فعلًا..

- وإيه مخليك متأكد كده يا فلتة عصرك وزمانك..

- الواد ده خرع، بالبلدي كده من أول ضربة كان هينخ، وماعتقدش إن أشرف بشخصيته المسئولة، كان ممكن يستأمن واحد زيه على حاجات



مهمـة زي دي..

- طيـب وبعديـن، تفتكـر يعنـي إن الموضـوع ده مـات فعـلًا مـع أشرف واتدفـن معـاه، ولا في حـد تـاني عـمال يحفـر ورانـا وإحنـا مـش حاسـين..

- لـو في هيبـان، هيتعـرف وهيظهـر عـلى الـرادار بتاعنـا، أنـا مـش عايـزك تشـيل هـم، أه سـوزي بتسـلم عليـك كتـير وعايـزاك تبقـى تيجـي تزورنـا أنـت والمـدام..

- وأنـت شـايف إن ده وقـت يسـمح يعنـي، مـش لمـا نشـوف البـلاوي الـلي ورانـا دي الأول..

- يـا دكتـور أنـا عـمال أطمـن فيـك وأنـت برضـو مـش عايـز تقتنـع، طيـب، عامـةً أنـا عـاذرك، بـس قريـب أوي هتشـوف التخطيـط بتاعـي هيعمـل إيـه..

استمرت شكوك «أكرم الأسيوطي» رغـم كل الثقـة التـي كان يتكلـم بهـا محدثـه، وتنامـت مخاوفـه، وشـعر وكأنـه في مقعـد القيـادة لسـيارة صاروخيـة مندفعـة، تـم تعطيـل فراملهـا..!

❊❊❊



«للحب أوجه كثيرة..
ليس من بينها الأنانية..!»
في الطريق إلى البحر الأحمر..



رحلت سماح وحيدة، في الحافلة المتوجهة إلى الغردقة، وهي تبكي بدموع صامتة، سالت على وجنتيها بألم أخرس لم يندفع منه شيء خارج صدرها.. جثة أشرف الممددة في الصالون لا تريد الانفصال عن وعيها، ملامح حسن الغاضبة تحرق أحشائها كالحمض، الغرباء يحيطون بها من كل الزوايا، لا أحد يعرف حكايتها، لا أحد يهتم بدموعها، لا غريب يسألها لِمَ تبكين أو لماذا لا تضحكين حين يضحكنا ذلك الفيلم الهزلي في تلفاز الحافلة، كل ما يحدث هو أنها تشعر بالموت البطيء مع كل لحظة تمر، وكل كيلو متر يمر على الطريق، كم هو سخيف أن تشعر أنك خائن، إلا لو كنت خائنًا بالأصل، فالخونة لا يعتبرون الخيانة جرمًا محرمًا وإنما طريقة للظفر بفرص الحياة.

راجعت رغمًا عنها ذلك اليوم الذي قضته مع حسن في رحلة جماعية على يخت بحري، في مياه الإسكندرية القريبة من الكورنيش، كان ذلك أثناء إقامتها معه بالبنسيون، قبل أن يعترف لها بحبه، يا لها من قاسية مخادعة، لقد انكسر قلبه ولقد ضاع مستقبله، انهارت حياته من أجل أن تنفذ حيلتها وتربح مكافأتها وتتركه جريحًا ومنزلقًا في الوحل. كانت تعلم أن الفقر كالطاعون، يتشابه معه في وجهين، في كونه قاتل وشرس، وكونه من الأمراض المعدية، ينتقل إليك من الموجودين حولك، وكانت تدري أن الفقراء والمحتاجين، يطوقونها من كل اتجاه..

تذكرت رغمًا عنها الآيس الكريم الذي اشتراه لها من ذلك المحل الشهير المطل على البحر والذي كان عبارة عن كرتين مثلجتين من المانجو والفانيليا، مازالت رائحتها تتسلل إلى أنفها. أكانت تحبه حقًا، أم أنها الشفقة تجاهه قد احتالت عليها فتشكلت على هيئة الحب.. حين وصلت إلى الغردقة، قررت أن تبدأ حياة جديدة وأن تنظر إلى الأمام، تغاضت عن كل شيء، كفّنت كل تلك الخواطر، ودفنتها ملتاعة في أرض النسيان..!

***



في عالمه الافتراضي، حاول حسن مرارًا أن يتمشّى على سطح المياه، لكن قدماه، كانتا تغوصان في الأعماق، أحزنه عدم جدوى محاولاته التي تكررت في إحباط، فتحولت قسمات فتاته من السعادة إلى البؤس، وذلك لعجزه الواضح عن الوصول إليها، تلفَّت حوله في كل اتجاه وكأنه يبحث عن قارب ما قد يكون موجودًا في الأرجاء، أو لربما يكون قد هبط له شيء من السماوات العاليات ليمد بينهما جسور اللقاء..

كف عن محاولاته حين أدرك أنه حتى في عالم الخيال، هناك أمنيات لا تتحقق..

همّت فتاته بالهرولة في اتجاهه حين فشل، وقبل أن تصل، غاصت قدماها هي الأخرى في عمق البحيرة وفي قلب اليأس..

***

كان هشام قد بدأ يشعر بالقلق، خاصة بعد أن مر أسبوعان كاملان بدون أن يصل خالد إلى مكان الفتاة أو حتى ما يقربهم منها، فكَّر في العودة مرة أخرى إلى حسن عسى أن يحصل منه على معلومة ما تساعدهم فيما يبحثون عنه لكن رنين الهاتف المتواصل أخرجه من كل ذلك، تجاهل الرنين وواصل شروده لكن إزعاج الهاتف لم يتوقف حتى كاد أن يحطمه، اسم خالد على الشاشة أوقفه، أجاب عليه سريعًا لأنه أدرك أن هناك خطب ما، فليس من عاداته الاتصال أكثر من مرة في وقت قصير.

بدا خالد منفعلًا ومتعجلًا وهو يقول لهشام:

- لقينا البنت..

- تاني..

- لأ المرة دي بجد مش تشابه أسماء، أخيرًا عرفنا هي مختفية عن عنينا فين بالظبط..



- والمكان المرة دي يبقى فين؟

- نازلة في فندق في الغردقة اسمه «Full Moon Resort».

- وإزاي قدرت توصلها، ده أنا كنت خلاص قربت أفقد الأمل وحسيت إننا بنجري ورا سراب..

- أنا برضو كنت زيك بقول إنها خلاص فص ملح وداب، بس أنا وزعت بياناتها على كل وحدات البحث الجنائي في المديريات، وهما تابعوا أي ظهور للبيانات دي في أي مكان، يعني تسجيل دخول في فندق، أو في مستشفى، أي حاجة من النوعية دي، لحد ما وقعت في الغلطة الساذجة دي ومكانها اترصد.. بقولك إيه مش عايزين نضيع وقت أكتر من كده، أنا دلوقتي هعمل اتصالاتي وهستناك تعدي عليا، عشان نسافر بعربيتي..

- ساعة زمن وهتلاقيني عندك..

قام هشام بتغيير ملابسه على نحو سريع، وهو في قمة الترقب لما ستسفر عنه الساعات القليلة المقبلة، في الطريق إلى شقة خالد تصور عقله عشرات من السيناريوهات المحتملة، فاختار أفضلها وتمنى في نفسه أن يحدث. توقف أسفل العمارة العالية وتصافح مع خالد بكل حماسة وهما يستقلان سيارته السوداء لينطلقا في طريقهما الطويل..

في الطريق إلى الغردقة، وبعد الهروب من زحام العاصمة الشديد، استرخى هشام على مقعده المريح، متأملًا أشعة الغروب البرتقالية، التي تنسكب على الكثبان الرملية فتبدو كحبيبات ذهبية، وضعها أحد ملوك الفراعنة العظام، قربانًا لإله الشمس.!

ظهرت هيئات جبلية صحراوية على الجانبين تراقب بكل شموخ، وكأنها حراسًا وقفت هنا منذ



الأزل لحماية الطريق من أخطار الزمان المجهولة والغادرة ولكي يراقبوا تطور الناس واختلاف عاداتهم على مر العصور، وليس ببعيد إن كانوا يتسامرون في المساء تحت ضوء القمر و يتناقشون فيما رأوه طيلة النهار، من عجائب البشر التي لا تنتهي..!

هبط الظلام على الوجود، حين وصلا إلى مدخل المدينة السياحية، وتوجها إلى الفندق مباشرة، ركن خالد سيارته، ورمى ببصره إلى الأعلى ليتأكد من خلال اسم الفندق أنه هو المكان المنشود..!

تجاوزا البهو، وخالد يُجري اتصالًا هاتفيًا ليتأكد من رقم الغرفة التي نزلت فيها الفتاة، صعدا السلالم المفروشة بسجاد أحمر، مباشرةً، وتأمّلا أرقام الغرف حتى وصلا إلى الغرفة (٤٠٧) فلمعت عينا خالد وطرق الباب بهدوء، لم يُجِب أحد، فطرق الباب مرةً أخرى، حتى سمعا صوت أقدام تتقدم باتجاه الباب، وبالفعل فُتح الباب، ليطالعهما وجه فتاة في العشرينيات من عمرها، متوسطة الطول، يبدو على عينيها تساؤل واضح عن ماهية شخصياتهما..!

- الرائد خالد همام..

قالها وهو يزيحها من أمامه ليمرا إلى الداخل، ومن ثم يغلق خلفه الباب، وسط ارتباك الفتاة الشديد، وهو يجلس على أحد المقاعد بهدوء:

- واقفة ليه يا سماح، ما تيجي تقعدي، أه لا مؤاخذة أصلي متلخبط شوية الأيام دي، تعالي يا سها عشان عايزينك في حاجة مهمة كده..

امتقع وجهها واصفر لونه وبدت وكأنها قد أدركت شيئًا ما، لكن خالد لم يمهلها الوقت كي تستوعب أي شيء..

- أنا عايزك تقولي كل اللي عندك ومن غير لف ودوران وأكيد انتي فاهماني كويس، أه الحاجة كانت بتسألك عن فلوس الجمعية بتاعة أم إبراهيم.. إلا صحيح، انتي شايلاها فين..؟!



اتسعت عيناها وكأنها رأت شبحًا فصرخ فيها خالد ثائرًا:

- انتي لسه هتفكري كتير.. إنطقي..

سالت دموعها وهي ترد بصوتٍ خفيض أقرب إلى فحيح الأفعى:

- عايز تعرف إيه يا باشا..

- عايز أعرف كل حاجة، خدي وقتك كده وعلي مهلك، إحنا مش مستعجلين.. وأوعدك إني هقف جنبك في القضية دي لو قلتيلي كل حاجة زي ما حصلت بالظبط..

أخرجت ولاعة فضية وأشعلت سيجارة، نفَّثت دخانها بعصبية لها ما يبررها، ثم بدأت تعود بذاكرتها للوراء وتروي لنا كل شيء..

- سعيد الجزار دكتور طب نفسي، في مستشفى اسمها «west Cairo» في القاهرة، بيشتغل هو وأكرم الأسيوطي مدير المستشفى في تجارة الأعضاء.

- بيشتغلوا فيها إزاي بقى، بأنهي طريقة يعني، بيتفقوا على فلوس مع الزبون ولا بيغفلوه..

- اللي أعرفه إن في ناس تبعهم، بيقنعوا الشباب اللي عايز يقدم على سفر للخليج، إنهم بيسفروا بسعر قليل، وبعد الاتفاق بيطلبوا تحاليل وكشف طبي على اللي هيسافر، هما طبعًا اللي بيكشفوا عليهم، بتبين بعد كده النتيجة وجود حصوات ومشاكل في الكلى، وبيقنعوهم إنهم لازم يعملولهم عمليات يشيلوا فيها الحصوات دي عشان يقدروا يسافروا، وبيشيلوا فيها الكلية خالص، وبعدها السفرية بتفركش طبعًا، والناس دي مش بتكتشف الاستئصال ده غير بعد فترة معينة لما يبدأوا يتعبوا ، وفي أوقات تانية بيتفقوا على فلوس مقابل العضو اللي الشخص هيتبرع بيه، وكل عضو طبعًا وليه سعره، وبيضطر ساعتها الزبون إنه يقبل بسبب الفقر أو وجود ديون عليه ممكن تسجنه، وكل ده غير الأطفال والستات، وطبعًا العمليات بتتعمل في المستشفى لو كان في مقابلها



فلوس، أما لو كانت تبع النصباية بتاعة السفر دي فكانت بتبقي في أماكن تانية بتتغير من وقت للتاني..

- يا ولاد الكلب، دول حيوانات..!

- الدكتور سعيد الجزار عرف إن ريحته فاحت وإن في حد شم خبر وبدأ ينخوّر وراه، وإن في مدير مستشفى في إسكندرية اسمه أشرف، اِتكلف إنه يتابع الموضوع وقدر يوصل لحاجات كتير تودي سعيد وأكرم للسجن لفترة طويلة، طبعًا هو ماقالش الكلام ده بس أنا عرفت بطريقتي..

اشترك هشام هو الآخر في الحديث الجاري بينهما وسألها بترقب:

- وإيه بقى اللي اتفقتوا عليه..

- سعيد الجزار مابيفوتش أي فرصة ممكن يستفيد منها بحاجة، كان عنده حالة في المستشفى بتعاني من صدمة نفسية، شاب مالوش غير أبوه وأمه وماتوا في حادثة طيارة، وفجأة لقى نفسه لوحده في الدنيا.. فدخل في حالة غريبة بتخليه متوتر وعنيف في تصرفاته وبيتخيل إن اللي حواليه عايزين يؤذوه.. جسمه بيعرق وبيتشنج وبيبقى عنده استعداد يقتل أي حد يضايقه عادي جدًا.

قاطعها خالد:

- ده اللي هو حسن طبعًا، عرفته من تاريخه المرضي اللي وصلني..

- أه هو، سعيد اتفق معايا على حكاية كده هنعملها معاه، إني أخليه يتعرف عليّا ويحبني، وبعد فترة أقنعه إن الدكتور أشرف بيطاردني وعايز يأذيني..

- أيوة بس حسن قال إنه كان بيشوف الدكتور أشرف حواليكم فعلًا.. إزاي ده كان بيحصل..

- عشان أنا كنت باخده وبروح الأماكن اللي الدكتور أشرف كان بيحب يقعد فيها دايمًا، يعني.. كافيه أو مطعم بيحب ياكل فيه، وبعدين أوهمه إن هو



اللي جاي ورانا مش إحنا اللي

رايحين وراه..

- ده مش ممكن يكون تفكير بني آدمين، ده أكيد تفكير شياطين، بس أنا مش قادر أفهم إيه اللي خلاه يروح لحد عندك في الشقة..

- الشقة دي اِتأجرتلي بالحب كده ومن غير أي عقد، وبِاسم بلاستيك.. قبل الواقعة بيوم وبعد ما فهمت سعيد إن حسن خلاص استوى، وبقى ممكن يعمل أي حاجة في اللي بيطاردني لو بس شافه، سعيد طلب مني إني أكلم أشرف وأقوله إني فاعل خير وإني أعرف موضوع الملف اللي معاه، وإن معايا معلومات مهمة جدًا، مش هينفع أسلمها غير ليه هو شخصيًا وعندي في الشقة..

- طب وإيه ودا حسن عندك في نفس الوقت..

- أنا كلمته وقلتله إني تعبانة أوي ولوحدي، وإديته معاد بعد اللي إديته لأشرف بحوالي ربع ساعة، وبعد ما قعدت أماطل شوية مع أشرف، مسكت في هدومه واتخانقت معاه أول ما سمعت صوت جرس الباب، اللي هو حسن طبعًا..

- وطبعًا أول ما دخل وشاف المنظر ده، فهم إن الدكتور أشرف بيحاول يأذيكي، فمع حبه ليكي وشعوره بالغيرة، جاتله الحالة وفقد اتزانه وقعد يضرب فيه لحد ما موته.

- بالظبط.. على فكرة أنا في مرة قابلت فيها سعيد واتخانقت معاه بسبب حسن، في أول ما اتعرفت عليه في البنسيون، كنت بدأت أحبه وكنت حاسة إني مش هقدر أكمل معاه الخطة اللي سعيد قايلي عليها، بس زعقلي يومها جامد وهددني إنه هيأذي أمي لو فكرت إني ماكملش معاه.. أنا كنت أصلًا اتعرفت عليه من خلال ممرضة صاحبتي، وكان يوم أسود ماطلعتلوش شمس.. المهم، بعد الموضوع ما خلص، إداني شوية فلوس حلوين وطلب مني اختفي الفترة الجاية وأسافر في مكان بعيد.. ده يا باشا كل اللي حصل، إوعى تنسى إن من



غيري ماكنتش هتوصل لحاجة.. (انهمرت دموعها على خديها وهي تتابع).. أنا متعلمة كويس يا باشا.. ماتسبنيش يا باشا.. أنا أمي غلبانة والفقر والحوجة هما اللي عاملين فينا كده.. أنت وعدتني إنك هتقف جنبي..

- ماتخافيش، أنا بس عايز أعرف مادام سعيد ده مجرم كده.. ليه ماقتلش الدكتور أشرف على طول أو بعتله حد يقتله..

- كان هيبقى المشتبه فيه الأول في القضية، لأن الدكتور أشرف هيبلغ باللي بيعرفه عنه أول بأول، وكان مستني بس يمسك دليل عليه، فكان هيبقى واضح إن سعيد هو المستفيد الوحيد من جريمة القتل، لكن العملية بالشكل ده، خدت مسار تاني خالص، علاقات غرامية وحوارات، ده غير إن سعيد بيحب يوصل للي هو عايزه بطرق مش مباشرة واستعراضية..

- بارانويا..! جنون العظمة اللي بيخليه يفتكر إنه إنسان كامل وأذكى من الكل، الغلطة اللي الكل بيقع فيها وبتعمي العيون عن أتفه التفاصيل.. الدكتور النفسي طلع هو نفسه مريض نفسي..!

كان هشام أقرب إلى الشرود من هول تلك الصواعق والصدمات التي كانت تنهال عليه، وكأن ومضات البرق قد خطفت بصره بلا رجعة..

اتصل خالد بزملائه بقسم الغردقة، الذين وضعوا سماح تحت التحفظ، كان يبدو أنه يقوم بالتنسيق على مستوى عالٍ، انطلق عائدًا إلى الإسكندرية في نفس الليلة، كان يسأل هشام طوال الطريق عن رأيه فيما سمعه، والذي كان أعمق من أن يعطي فيه أحد رأيًا، أخبره أنه قد استشف من سماح أن لديها شعورًا بالذنب، وأن ذلك قد يرجع إلى أنها ربما أحبت حسن، لذا فلم تستغرق وقتًا طويلًا في الاعتراف، غلب هشام النوم وأخذته غفوة وكأن أحدهم قد ضربه بآلة ثقيلة على رأسه..!

***



الومضة السادسة:
ضوء في نهاية النفق..

بعد بضعة أيام..

مستشفى «west Cairo».

القاهرة..

الساعة الثامنة صباحًا..

لم يكن ذلك الصباح مختلفًا، فقد كان العاملون في المستشفى يباشرون أعمالهم المعتادة، ويتحركون بشكل سريع نزولًا وصعودًا بين الطوابق المختلفة، للقيام بإجراءاتهم الطبية البطيئة، أرضية المكان لامعة ونظيفة مما يعني أن عامل النظافة قد قام بأعماله اليوم، وجلس ليسترِح على كرسي خشبي بجوار البوفيه، مشعلًا سيجارة أكثر رداءة من تصرفاته التي تسبب ارتفاعا جنونيًا في معدلات ضغط الدم لمن تقع عيناه عليها، إلا تلك الفتاة التي كانت ترتدي نظارة شمسية سوداء وملابس نسائية أنيقة، وتسريحة شعر جذابة، لم تلتفت إلى كل هذا ولم تعره أي اهتمام، فقط توقفت أمام أحد المكاتب ومن ثم دخلت إليه مباشرة:



- صباح الخير..

- سماح؟! انتي إيه خلاكي اتنيلتي جيتي هنا، أنا مش قايلك مانتقابلش وماشوفش وشك هنا خالص..

- وحشتني يا دكتور وبعدين الفلوس اللي معايا قربت تخلص وعايزة فلوس تاني..

- نعم يا روح أمك، خلصتي كل الفلوس اللي خدتيها، وانا أعملك إيه، إلا تكوني فاكراني بضرب الأرض تطلع فلوس ولا قاعد على بنك..

- طب بذمتك ماستاهلش فلوس تاني يعني، ده أنا وقعتلك الواد وخليته يحبني ويصدق إني من مستوى عالي وبنت ناس، وأقنعته إن الدكتور أشرف بيطاردني، وماقتلش الراجل في الآخر زي ما أنت عايز غير من غيرته وخوفه عليا، لأ خلصتك من حمل كبير يعني كان ممكن يوديك السجن فترة كبيرة، وأنت عارف لو حد كان شم خبر عن عمليات تجارة الأعضاء اللي شغال فيها أنت والدكتور أكرم، خاصة إن فيه ناس ماتت بعد فترة من ورا العمليات دي..

- الله يخربيتك إقفلي بوقك ده خالص، إلا حد يسمعك، طب خلاص خلاص سيبيلي عنوانك وأنا هبقى أبعتلك الفلوس، بس دي آخر مرة هتاخدي فيها حاجة مني ولو شفتك تاني أوعدك إن نهايتك هتكون على إيدي..

- ماشي لما نشوف، اتفقنا.

قالتها وهي تغادر المكتب، وقد أدت الدور المطلوب منها بكل إتقان، كانت تعلم أن براعتها في التمثيل هي نقطة قوتها، لهدوء وبراءة ملامحها، كانت تحلم وهي صغيرة، أن تحترف التمثيل وأن تصبح نجمة سينمائية لامعة..!



أما سعيد الجزار فلم يكد يفرغ من مشاعر الحنق والتوعد للفتاة، حتى فوجئ بلفيف من الضباط يحيطون مكتبه من كل اتجاه ويقومون بالقبض عليه وترحيله إلى قسم الشرطة الذي تقع المستشفى في دائرته، وترتسم على ملامحه علامات الدهشة والذهول..

أما خالد فقد ابتسم وهو يرى القيود الحديدية تلتف حول معصمي سعيد، بعد أيام قليلة من لقائه بسماح، التي وعدها بأن تكون شاهد ملك في هذه القضية.

راجع خالد في ذهنه كل ما دار في الأيام الماضية، حين التقى بسماح في مكتبه صباحًا واتفق معها على الإيقاع بسعيد الجزار من خلال تسجيل اعتراف صوتي له بالجرائم التي قام بارتكابها، قام حينها بتزويدها بسماعة خاصة، وقام باستخراج إذنًا خاصًا من النيابة العامة، لكي تقوم سماح بتسجيل كل ما سيدور بينها وبين سعيد في مقابلتهما الأخيرة، وبالفعل. ابتلع الرجل الطعم الوهمي كسمكة قرش طائشة، ظنت للحظات أن أسنانها الحادة لن تتوقف يومًا عن الاصطياد أو البطش، وتناست أن أحوال البحر المتقلب، ككل شيء في هذا الكون، لا تتوقف عن الدوران...!

***



«عقلك الباطن..

مراوغ ومُخادع..

و لا يمكنك هزيمته..

لأنك حينها..

تواجه نفسك..!»



تساءلت في أعماق نفسي، بعدما علِمت بكل ما دار في الأيام الماضية، من الدكتور هشام، الذي أيقن أني ضحية، تم دفعي لارتكاب جريمة قتل بناءً على خلفيتي المرضية، عما إذا كنت أنا حقًا من قام بقتل ذلك الدكتور الأشيب، أو كنت شخصًا غيري، لم أعرفه في حياتي قط، كان هناك تساؤلًا يؤرقني رغم كل ما سمعت، ويكاد يودي بي للجنون، سألت هشام:

- في حاجة هتجنني ونفسي أعرفها..

- حاجة إيه..

- إزاي حلمت بسها قبل ما أشوفها..

ابتسم هشام وهو يقول:

- لسه برضو بتقول سها، واضح إن مافيش فايدة فيك، سعيد وهو بيعترف قدام النيابة، قال إنه واخد دورات متقدمة في أوروبا في مجال التنويم المغناطيسي والإيحاء، وإنه في جلسة من الجلسات اللي كان بيعالجك بيها، مارس عليك التنويم المغناطيسي، وأقنعك إن سماح حبيبة قديمة ليك، ووراك صورة ليها، خدها منها وهما بيتفقوا مع بعض، صورة كده لابسة فيها فستان أحمر وبتبتسم، كانت متصوراها قدام الأهرامات، وإنه ماكنش يقدر يقنعك بفكرة القتل بصورة مباشرة، لأنها فكرة عنيفة شوية، صعب على عقل حد زيك مش شراني بطبعه إنه يقبلها، عشان كده كانت فكرة الحب بالنسبالك لطيفة ومقبولة..

اتسعت حدقتاي قليلًا وأنا أكمل ما قاله هشام:

- وده طبعًا عشان يسهل فكرة إن سها أو سماح تلفت نظري أول ما أشوفها وأحس إنها مألوفة ليا وإني شفتها قبل كده وبالتالي أحبها بسرعة..

- أنت فعلًا حبيتها وشفتها ولفتت نظرك زي ما بتقول، بس ماقدرتش تشوف خداعها ليك طول الفترة اللي فاتت دي كلها.. اللي بيحب مابيشوفش يا حسن..!



أخرجت زفرتين حارتين من صدري، حارتين جدًا، أكثر من حرارة الصيف بالقرب من خط الاستواء، وشعرت بمدى سخافة أن تشعر أنك دمية في مسرح للعرائس، تُحرِّكها أصابع خفية، أو كزجاجة تقذفها الأمواج إلى أي شاطئ تريد..

اتضح لي حينها لماذا كنت أراها بفستان أحمر ولماذا كانت تبتسم. ليس مستبعدًا أيضًا أن يكون عقلي الباطن قد استوحى تلك المسلة الفرعونية التي كنت أراها بجانبها في الحلم، من تلك الأهرامات التي تظهر خلفها في الصورة الفوتوغرافية.. من المؤكد أنه صاغ حلمًا خاصًا من خلال المعطيات التي تم إدخالها له، وقام بترجمتها بطريقته الخاصة لعدة تفاصيل.. فتاة، لون أحمر، ابتسامة، بناء فرعوني.. العقل الباطن؟! يا له من شيطان..!

لم أكن أعرف إلى أين سيئول مصيري، كلفت محاميًا بالدفاع عني، وكذلك فعل أكرم الأسيوطي الذي اعترف سعيد بمشاركته إياه في كل شيء، في الأيام الأولى لجلسات المحاكمة، أما سها فكانت تتفادى النظر إلى عينيّ، أو تشيح بنظرها بعيدًا عنّي، وكأنني شعور قاتل بالذنب، يتجسد أمامها على هيئة بشر..

مما أثار استغرابي في الأمر، أنني لم أعد أراها كفتاة، وإنما كأفعى سامة، كانت تلتف حول عنقي لتقتلني.. لم أحزن عليها بقدر حزني على ضياع ما كنت قد ظننت أنني أمتلكه، كنت أظن أنني وجدت الحب الذي كنت أبحث عنه طويلًا، لكنه مازال يبتعد عني كلما اقتربت منه كالسراب...!

حاولت أن أراها على صورتها البشرية مجددًا فلم أستطع.. ماذا لو استطعت أن أرى كل الناس على هيئاتهم الحقيقية..!

أخبرني المحامي أن هيئة المحكمة ستأخذ في الاعتبار تاريخي المرضي، وأنه قد تم دفعي دفعًا من خلال المتهمين الآخرين إلى ما حدث، سها أيضًا قد يفيدها تعاونها مع الشرطة في النهاية..

علمت أيضًا أن نسخة الملف التي كان الدكتور أشرف قد أعطاها لهشام في أيامه الأخيرة، تولّى هشام مهمة إيصالها إلى الجهات المعنية في الوقت المناسب..

***

تأملت أستاذة الجامعة «سميرة فهمي» الشاهد الرخامي، المحفور عليه اسم الدكتور أشرف مجدي زوجها الراحل، وبيديها طفلتيها الرقيقتين وتذكرت كل شيء.. ملامح وجهه، ابتسامته، كلماته، حنان قلبه، افتقادها لسماع صوته، شعورها بالفراغ، بالضياع، مزاحه مع ابنتيه، تناوله الطعام معهم على مائدة واحدة، احتواءها له حين يشكي لها آلامه.

لماذا نلتقي ما دمنا سنفترق، لماذا تتلاقى مساراتنا مادامت رحلاتنا إلى النهاية ليست واحدة، لماذا تقوم الأقدار بهذه التصفية اليومية لكي تقرر من الذين سيستمرون ومن الذين سيرحلون، ولماذا لا تراعي ما يمرون به من ظروف، فتأتي على الطيبين، وتترك الأشقياء، لا بد أنها حكمة إلهية تفوق قدرتنا على الإدراك..!

كان الألم يعتصر روحها، حين تطل على دولاب ملابسه، وترى ما اعتاد على ارتدائه، كان كل شيء في المنزل يذكرها به، وبالسنين الطويلة التي عاشتها معه، بالبريق الذي انطفأ في حياتها، كانت تعلم بأن الفتاتان لا تتفهمان قسوة وفداحة ما حدث، وأن نيران اليُتم ستكون حارقة أكثر حين تكبران، ماذا بيديها الآن لكي تفعله، سوى التضرع والدعاء، يا للنساء، ويا لقوة الاحتمال الرابضة في أعماقهن، ويا للكون الرحب في قلوبهن، كيف لأرواحهن أن تنطوي على الشيء وضده، الضعف والقوة، الشراسة والحنان، الرقة والجلد.. ربما كان ذلك التناقض الأنثوي المحير هو ذاته السر الذي يضفي على الأنوثة مزيجًا من السحر والكبرياء..

***



«تتدلى من جوهر القلوب السليمة..
جواهر بهية مضيئة..
كعناقيد العنب..
أما القلوب المريضة..
فهي أرضية ومُرة كالعلقم..»



كان أكرم الأسيوطي كجمرة مستعرة، أو ككتلة من الندم والحنق تريد أن تدهس سعيد الجزار حتى تساوي جسده بالأرضية، لم يكن يتوقع أن يسقطا بهذه الطريقة التي تنم عن انغماسهما في الغرور والسذاجة. كان سعيد متكورًا في أقصى ركن لا يكاد يصدق المصيبة التي حلت عليه، هالتان سوداوان تحت عينيه أطفأتا نضارة وجهه، وهو يرثي لحاله ولحال زوجته التي ستعيش وحيدة في الفيلا الواسعة لأنهما لم يرزقا بأي أطفال، أما هو فسيمضي سنواته القادمة خلف القضبان..

***

في صباح ذلك اليوم الذي بدا كأنه عيد، بشمس ما بعد الشتاء الحانية وبابتهاج أوراق الشجر المبللة بمياه المطر، وبقوس قزح الملون، لم يرَ أحد هشام، وهو يخرج من ذلك المبنى، متحررًا من كل ما كان على عاتقه، مغمورًا بارتياح روحي، كحضن دافئ في أيام الشتاء، كم كانت الأمانة ثقيلة على كتفيه، وكم ملأت الظلمة أعماقه أيامًا، وكم هو فخور بما تحقق.. لكل مدينة ضحاياها، وضحايا مدينته كثيرين، منهم من ضربه الفقر ومنهم من قصمه المرض ومنهم من أضاع حقوقه الجهل المطلق، لكن اليأس لم يفترس إرادته، بل قاوم بكل ما يستطيع حين تأكد أن الضوء المنير في نهاية النفق كان حقيقيًا، ينبغي على الإنسان أن يتأكد من حقيقة ما يسعى خلفه أولًا قبل أن ينطلق في رحلته، فالسير وراء السراب مهلِك، ومحبِط للآخرين، فبمجرد أن يرى الرفاق، رفيقهم وقد سقط، حتى تتساقط هممهم وتضعف آمالهم في النجاة، البشر جميعًا في مركب واحدة، وأمواج العالم شديدة الاضطراب..!



ها هو قد وصل إلى نهاية النفق، وعبر إلى ذلك البستان البديع، المليء بزهور وأشجار لم يعرفها، تتوسطه نافورة مياه عالية وجداول سحرية صغيرة يجري بها عسل أبيض مصفى، ومن يدري، ربما كان البستان بكل ما فيه هو قطعة مباركة من جنان سماوية.. فذلك دومًا هو ثواب المخلصين..!

كان يعلم بأن هناك أنفاق أخرى، مكتظة بالبشر، تنتظر من يرشدها إلى النور وإلى البستان، لكن لكل نفق منها أبطاله وضحاياه..!

لم يدرِ أحد أيضًا أنه لوهلة شعر بشيء ما بداخله يدفعه للنظر إلى السماء.. تأمل زرقتها، و خُيّل إليه أن وجه أستاذه الراحل يطل عليه راضيًا من خلف السحاب، وعشرات من وجوه أخرى في الأفق البعيد تحدق إليه و تبتسم..!

تأمل قوس قزح بكل اهتمام، فبدا له كسُلم من الحلوى الملونة، ينقل الأتقياء إلى السماوات العلا..!

❊ ❊ ❊



الومضة السابعة

ما بعد النهاية..!

«الرغبة في الانتقام جامحة..

كالعاصفة..

لا تتردد كثيرًا قبل أن تقتلع الجميع..!»

بعد بضعة سنوات..

في تلك الليلة المقمرة، لم يكن هناك أي صوت يعلو فوق صوت الصمت، الجميع نيام، يستعدون لمعارك الصباح، التي يفتحون عليها أعينهم كل يوم، قلة النوم، مشاكل العمل، الاضطرابات العائلية، كل شيء يعلن الحرب على أعصابهم، رغم أوضاعهم الاجتماعية المتميزة، لكنهم في النهاية كغيرهم من البشر، لا يعرفون إحساس الشبع ولا يقنعون بما هو موجود، وإنما يجرهم إدمان التملك إلى مزيد من الإدمان، فيسعون دون أن يدروا خلف مزيدًا من الفراغ ومزيدًا من اللا شيء..!

في ناحيةٍ ما في أطراف منطقة التجمع الخامس بالقاهرة عبر ذلك الشاب الهادئ، مشعر الذقن، قوي البنيان، الطريق في خفة، واقترب من السور



الحديدي لتلك الفيلا الصغيرة، والمطلي بطلاء أسود، في ساعة متأخرة من الليل، قفز إلى الداخل بكل رشاقة ، ودار بعينيه في المكان كالثعلب البري، توجّه إلى باب خلفي موصد يعرفه جيدًا وبطريقة ما قام بفتحه..

تجاوز الصالة الواسعة سريعًا وارتقى درجات السلم المؤدي إلى غرفة النوم بالطابق الثاني، توقف أمام باب الغرفة قليلًا في الممر المظلم وأدار مقبض الباب بكل هدوء، إلى أن دخل، سار بخطوات محسوبة كفهد يتربص بفريسته، وتطلع إلى تلك المرأة الغارقة في نوم عميق على السرير، اقترب منها أكثر فلم تشعر، لفّ يديه حول رقبتها كثعبانين قاتلين وبدأ في الضغط، هنا فتحت عينيها مفزوعة وهي تحاول أن تخفف ضغط يديه القوي، قاومته حتى قبل أن تستوعب أي شيء، لكنه كان مصرًا فزاد من ضغطه فجأة حتى ازرق وجهها الجميل وبرزت عيناها وكأنها قد رأت شبحًا غاضبًا برز إلى عالمها قادمًا من قاع الجحيم، همست بصوتٍ مبحوح وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة:

- أنت مين..!!

- إيه.. مش عارفاني.. ابقي اسألي جوزك.. سعيد الجزار.. في الآخرة..

- أنت مييين..؟

- عايزة تعرفي أنا مين، ، أنا اللي مشيت في جنازة واحد ما اعرفوش وفي الآخر طلع دكتور كان بيحاول يوقفكم عند حدكم، ويجيب حق الناس الطيبين اللي زي أبويا، أبويا اللي مات من الحسرة على نفسه، أنا اللي الظروف ضيعتني وخدتني في حتة غير اللي المفروض أكون فيها.. هقتلك.. عارفة ليه.. عشان تبقي عبرة للي بيقطعوا في أجسام الناس.. عايزة تعرفي أنا مين..؟ أنا أبقى سالم، سالم عبد الرازق زيدان..

***



الومضة الثامنة

بين عالمين..!

مستشفى «west Cairo»..

قسم الصحة النفسية..

الغرفة (٢٢)..

بعدما انتهى عقلي من استرجاع كل تلك الأحداث..

سألت نفسي عما يحدث لي..

ما الحقيقة في كل ما جرى، وما الخيال..؟!

و كيف بإمكاني أن أميز بين الحقائق والأوهام، ما هذه الغرفة الغريبة التي أرقد على أحد أسرتها وقد طالت لحيتي على نحو مهمل؟!

كنت محاطًا بثلاث ممرضات يحدقن باتجاهي بترقب..

سألت عن الدكتور سعيد فتبادلن نظرات غير مفهومة ولم أحصل على أي رد.. وجدت بجواري وجبة غداء ساخنة..



طعام المستشفيات شنيع مهما بلغت جودته..!

انتظرت حتى انصرفن من حولي..

نهضت بقدمين ثابتتين..

تطلعت إلى المرآة بتركيز..

فلم أرَني..!

كنت أعلم من أين تبدأ رحلتي لمعرفة الحقيقة وكشف كل هذا الغموض..

حقيقة ما عشته فعلًا وما أوهمتني به الهلاوس..

سأكتشف بنفسي، ولن أسأل أحد..

فقد بلغت تلك الدرجة من الذكاء، التي تدفعني إلى الصمت..

والاكتفاء بمراقبة ما يدور حولي..

سأسافر إلى الإسكندرية..

وسأبحث عن بنسيون باولو..!

فمن هناك بدأ كل شيء..

ولكن مهلًا..

قد لا أجد بنسيونًا أصلًا بهذا الاسم!

من يدري..!

لماذا لم يتم إيداعي في السجن إذا كانت قصتي حقيقية..؟!

أم أن المحكمة قد وضعت تقارير أمراضي النفسية في الاعتبار ومن ثم أمرت بإيداعي

إلى مستشفى صحة نفسية تحت حراسة من الشرطة..



مهلًا..

فقد خطر ببالي مجددًا شيءٌ غريبٌ..

رقم غرفتي هنا في المستشفى ٢٢..

ورقم غرفتي في البنسيون كان أيضًا ٢٢..

هل اختلطت الأمور في ذهني من فرط التشويش..!

أم أنها مصادفة..!

في نهاية النهار..

استفقت من الدوار الذي كان قد بدأ يتلاعب برأسي..

والذي سيقودني حتمًا إلى الجنون..

توقفت عن التفكير..

أبدلت ملابسي..

فتحت باب الغرفة..

خرجت من المستشفى خلسة إلى ذلك الشارع المزدحم..

ملأت صدري بالهواء المنعش..

وبعد لحظات..

كنت أركض في الخارج..!

***

«لا توجد أبدًا نهايات.. فكل نهاية.. هي بداية جديدة..»

تمت بحمد الله

***





للتواصل مع الكاتب:

Facebook: https://www.facebook.com/AhmedRabieWritings


ساحر الكتب


جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
ن
للنشر
والتوزيع
noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007



بنسيون باولو

كنت أعلم من أين تبدأ رحلتي لمعرفة الحقيقة ، وكشف كل ذلك الغموض .. سأسافر إلي الإسكندرية و سأبحث عن بنسيون باولو .. فمن هناك بدأ كل شيء .. !

تصميم الغلاف كريم آدم



